نطق الخيال

الكتاب: نطق الخيال.

المؤلف: سارة محمد عبدالكريم.

الغلاف: عبدالله أحمد.

رقم الإيداع: 27725 .

الترقيم الدولي: 978-977-6794-53-2

المراجعة اللغوية: مكتب مدينة الكتب للخدمات.

الإخراج الفني: دار مدينة الكتب للنشر والتوزيع والترجمة.

رئيس مجلس الإدارة: محمود عادل محمود

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز لأي صورة نشر، أو اقتباس، أو إعادة طبع أي جزء من الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو كان أو بأي طريقة سواء أكانت إلكترونية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من الناشر.

العنوان4 ح جامع بلال– الشرابية - القاهرة

البريد الإلكتروني: Citybooks20@gmail.com

قصص

نطق الخيال

سارة محمد عبدالكريم

مدينة الكتب
للنشر والتوزيع

ما قبل الإهداء . .

قبل الإهداء وقبل المقدمة سيكون لي طلب خاص وأرجو مِن القارئ تنفيذه.

أميرة وحسام وأحمد كانوا طلابًا في كلية الطِّب، لم أكن أعرف الكثير عنهم فقط طلاب في جامعتي العتيقة ألتقي بهم أحيانًا في الممرَّات أو ربَّما أصطدم بأحدهم أثناء تزاحم الطَّلبة مسرعين للخروج مِن أحد الأبواب بعد نهاية محاضرة مملَّة، يؤسفني أنَّ ثلاثتهم الآن في قبورهم؛ وهذا هو سبب هذه الكلمات لذلك أطلب مِن القارئ أنْ يدعو لهم بالرَّحمة وأنْ يجعل تلك القبور مِن رياض الجنَّة وأنْ يرحمني إذا صِرت إلى ما صاروا إليه.

آمين

***

إهداء

إلى كلِّ مَن يعشق الخيال، ويهوى تفاصيل الورق، إلى كلِّ مَن قال لي يومًا كلمةً لطيفةً ربَّتتْ على قلبي، وقبل كلِّ هؤلاء سيكون إهدائي إلى والدايّ وأخي الَّذين قاموا بتعليمي كيف يكون العطاء.

***

مقدمة

نُطق الخيال كان هذا عنوان خَطَّه قلمي في منتصف ورقة بيضاء، تركتُ القلم ومكثتُ دقائق أفكِّر فيما سأكتبه، غُصْتُ في بحر أفكاري العشوائي ثمَّ تداركتُ نفسي، نظرتُ إلى ورقتي البيضاء، جملة مِن كلمتين لماذا خططتُ هذا العُنوان؟ وما هي الفكرة الَّتي قادتني إلى ذلك؟

يبدو أنَّني نسيتُ، هكذا تمتمتُ وأنا أشقُّ الورقة مِن المنتصف وألقي بها وراء ظهري، فكرة أخرى ستُدفن ولن أتذكَّرها مِن جديد، ربما ستطفو على السَّطح تراودني كحُلْم ليلي يُنسى في الصَّباح، كم السَّاعة الآن؟ كم مرَّ عليَّ أجلس وحيدةً أَدَّعِي الإنتاجية ووقتي يتناثر في شكل عشوائي مِن التَّفكير؟ يبدو أنَّني نسيتُ مِن جديد.

فكرة أخرى يهمس بها عقلي، خططتها في منتصف ورقة جديدة قبل أنْ أترك القلم وأفكر فيما سأكتب، وبعد عشرات المحاولات نما هذا الكتاب، هنا سأتحدثُ عن الخيال، هنا سأجسِّد الأفكار على ورق مطبوع، وهنا أرجو أنْ تجد بعض المتعة، يمكنك أنْ تقرأ الكتاب بأيِّ ترتيب تشاء، فهذه القصص لا يجمع بينها سوى أنَّها نُسجت مِن خيوط الخيال.

***

القصَّة الأولى

(في ظلِّ ذاكرة)

ظللت أَنظُر منبهرًا إلى أنوار المدينة البعيدة، هناك على الطَّرف الآخر يوجد مَن يعيش، مَن يحلم ويبتسم ويضحك، نظرتُ إلى السَّماء أتأمَّل أضواء النُّجوم، شعرتُ أنَّ هناك مَن يراقبني خلسةً، التفتْتُ فإذا هي خالتي الكبرى، ملامح هذه المرأة القاسية لا تريحني كثيرًا، أعادت إحدى خصلات شعرها الَّتي نثرها الهواء إلى الوراء، ثمَّ قالت:

" بتفكر؟"

تعلمتُ أنَّ هذه السَّيدة لا تثرثر مِن فراغ، تحسب كلماتها كالنُّقود، أجبت متوجسًا:

" آه"

" في إيه؟"

أشرتُ بيدي تجاه الأضواء وقلتُ:

" في النور واللي وراه، هناك في ناس بتحلم وتحب وتعيش"

" وتكره وتحقد وتموت!"

" طيب ما نبص للكويس؟"

" الكويس موجود زيه زي الوحش"

صمتتْ فعلمتُ أنَّها لن تضيف المزيد، استمرَّ الصَّمت لبرهة قطعه صوتها العميق:

" خليك فاكر يا يحيى إنْ أكبر عدو ليك هو دايمًا نفسك، اتعلم إزاي تغلبها وتلجمها"

قالت تلك الكلمات ثمَّ استدارتْ مغادرةً تاركةً الشُّرفة وإيَّايَ أفكر فيما قالت.

***

مع خالتيّ أعيش، في قرية صغيرة قرب المدينة، شديدتا التَّشابه في الملامح، شديدتا الاختلاف في الطِّباع، فارق السِّن بيني وبينهما عشرون عامًا تقريبًا، لا أتذكَّر أيَّ شيء عن حياتي السَّابقة، حادث قديم أدَّى إلى فقداني لذاكرتي، أحلامي، أسراري، حياتي، كل ما يميِّزني فقدته، أصبحتُ أتلقَّى المعلومات عن نفسي منهما، أخبرتني خالتي الصُّغرى (رانيا) أنَّني كنت أعشق اللُّغة الفرنسيَّة وأسعى جاهدًا لتعلُّمها؛ لذلك عدتُ الآن لدراسة الفرنسيَّة مِن جديد، أصبحتُ أُتقنها تمامًا.

خالتاي طبيبتان ماهرتان؛ لذلك لم أحتج إلى التَّردد على الكثير مِن الأطبَّاء، خالتي الصُّغرى رانيا أستاذة علم الأدوية في كلية الطِّب، وخالتي الكبرى

ماريا أستاذة مخ وأعصاب، تأمَّلتُ وجهيهما وهما تتناولان الطَّعام، ثمَّ طرحتُ سؤالي:

" هو فعلًا في أمل إن ذاكرتي ترجع؟ إحنا بقالنا كتير ماشين على العلاج، أنا زهقت"

مضغتْ خالتي رانيا لقمتها ثمَّ قالت:

" طبعًا يا يحيى، في أمل، إنت مش حاسس إنك بتتحسن؟"

صمتُّ لثوانٍ ثمَّ قلت:

" أنا بتحسن بس لأني اتكيفت، وبكتسب صفات منكم وصفات أنا حاببها... لكن أنا مش فاكر حاجة عن نفسي القديمة"

تعلَّقت عينا رانيا بماريا، فنطقتْ الأخيرة بعد صمت طال:

" يحيى، أنا قلتلك قبل كدة أنت محظوظ، جتلك فرصة تمحي كل حاجة وتبدأ من جديد... حد يطول يبدأ من جديد على نضافة؟"

" معنى كلامك إنه مفيش أمل ذاكرتي ترجع!"

" ودي حاجة تزعلك؟"

" أكيد!"

" تقدر تقولي ليه؟"

" ليه! أنا حاسس إني تايه، مش عارف نفسي، ببص في المراية وبشوف واحد مش عارفه"

نهضتْ خالتي رانيا واتجهتْ إليَّ، ثمَّ ربَّتتْ على كتفي بحنان ونطقتْ:

" كل حاجة هتبقى بخير يا يحيى، متقلقش"

" أنا تعبت... إنتِ طول الوقت بتقولي كدة، ومفيش حاجة بتبقى بخير"

نهضت خالتي ماريا مِن على مقعدها ثمَّ قالت وهي تغادر الغرفة:

" في ضيوف جايين النهاردة يا يحيى، جهز نفسك عشان تقابلهم"

***

كانت المرة الأولى الَّتي أرى فيها خالتي ماريا تبتسم، تجلس إلى جانب خالتي رانيا، وتجلس كلتاهما وسط العديد مِن الرِّجال ذوي البدل، يتحدَّثون بطريقة رسمية يغلب عليها مصطلحات لاتينية وإنجليزية، تمتلئ الطَّاولة أمامهم بالعديد مِن الأوراق، دلفتُ إلى الغرفة يصاحبني توتُّري، لستُ أميل إلى العزلة وقد كوَّنت الكثير مِن الصَّداقات في محيط القرية والدِّراسة، ولكن هذه المرَّة أشعر بالارتجاف، تعلَّقتْ أعينهم بي فور دخولي، أشارتْ إليَّ خالتي رانيا أنْ أجلس ففعلتُ، قال أحدهم:

" أنت يحيى؟"

" آه"

" عندك كام سنة؟"

" ٢٥"

" مش بتشوف أحلام تفكرك بماضيك؟ مفيش أي فكرة تديك نور عن حياتك قبل كدة؟"

" لأ، مفيش أبدًا"

أضاف ثانٍ سؤالًا آخرًا:

" حاسس بإيه يا يحيى؟"

حرَّكتُ نظري إلى خالتي رانيا، فأومأتْ لي برأسها مع ابتسامة، فأجبتُ:

" الحياة كويسة، وأنا بتأقلم والدنيا ماشية تمام... الموضوع عادي يعني بس..."

صمتتُ لبرهة، وبلَّلتُ شفاهي بطرف لساني، ثمَّ أكملتُ:

" أنا محتاج أعرف حياتي قبل كدة كانت عاملة إزاي... مينفعش أفضل أسمع من برا بس، محتاج أفتكر شكل والدي ووالدتي كان عامل إزاي، أفتكر صورهم في مخي مش صورة شفتها على ورق لناس معرفهاش، أفتكر مشاعري لما عرفت خبر وفاتهم، أفتكر صحابي... مدرستي القديمة... أفتكر نفسي..."

حرَّك الرَّجل رأسه في تَفَهُّم، ثمَّ همس ببضع كلمات لزميله لم أتبينها، ودون شيئًا في ورقته.

منذ ذلك اليوم بدأت الصُّور تتشكَّل أمامي، أرى ومضات لأشخاص وأماكن، سألتُ خالتيّ مرارًا عن هؤلاء الرِّجال، فاكتفوا بإخباري أنَّهم أمهر أساتذة جُلبوا لمتابعة حالتي، أنا أثق فيهما كثيرًا خاصةً الحنونة رانيا، ولكن الأمر بدأ يريبني؛ لماذا هذه المجموعة الآن؟! الصور تزداد والذِّكريات تتشكَّل، لاحظتُ

تغيُّر نظرات خالتيَّ اتجاهي في الفترة الأخيرة، ألقيت سؤالًا مترددًا عليهما يومًا:

" أنا بدأت أشوف صور، أنا عارف إنكم عارفين إيه ده... أنا عايز أعرف"

توقَّفت خالتي رانيا عن الأكل، بينما نظرتْ إليَّ ماريا بنظرات مبتسمة، مما أثار ريبتي، ثمَّ نطقتْ:

" إيه رأيك نخرج أنا وإنت النهاردة؟"

" ليه؟"

" هو لازم يكون في ليه؟"

" إنتِ اللي علمتيني إن دايما في "ليه"!"

" وإنت تلميذ شاطر، وحقيقي ياريتك كنت واحد من طلابي، جهز نفسك خروجة النهاردة هتعجبك جدًا"

***

تقود خالتي ماريا السَّيارة بهدوء شديد كعادتها، لاحتْ أضواء المدينة مِن بعيد، ودقائق ثمَّ أصبحنا في منتصفها تمامًا... رحتُ أتأمَّل الطُّرق، لم أكن أراها للمرَّة الأولى بطبيعة الحال، ولكن ما جدَّ هو تلك الصُّور الَّتي تكوَّنتْ في ذاكرتي عنها، أراني أسير في هذه الطريق وإلى جانبي فتاة تتدثَّر بالسَّواد، يحضرني اسمها بصعوبة، أغمضت عيني أحاول التَّذكُّر،لاحظتْ ذلك خالتي فقالت:

" كان اسمها سوسن، وده طريق شغلكم، وكان اسمك وقتها خالد"

" إيه؟!"

لم أتلقَّ جوابًا، فقلت بعصبية لا تخلو مِن احترام:

" خالتي، أنا محتاج أفهم"

" اصبر، وهتفهم"

بعد قيادة طالتْ، أوقفت السَّيارة بأحد الشَّوارع الضَّيقة الَّتي يغلب عليها العشوائية والفقر، بدتْ سيَّارتها الفارهة غريبةً وسط هذا الشَّارع المقفر، ترجَّلتُ مِن السَّيارة فتبعتُها، سارتْ بضع خطوات ثمَّ دلفتْ إلى شارع أكثر ضيقًا وأنا أتبعها، الصُّور تزداد لدرجة يصعب عليَّ ملاحقتها، الكثير مِن الأفكار العشوائية الَّتي لا تدل على شيء... فقط صور غير متناسقة، دلفتْ خالتي إلى مبنى عتيق تتصاعد رائحة الرُّطوبة مِن مدخله، أخرجتْ مِن حقيبتها مفتاح وفتحتْ الشَّقة الأولى في الطَّابق الأرضي ثمَّ دلفتْ وجلستْ على أحد الكراسي، دلفتُ وراءها ثمَّ وقفتُ أمامها أنتظر منها بدء الكلام، أشارتْ إليَّ أنْ أجلس فجلست، قالت:

" مش فاكر بيتك يا خالد؟"

" خالتي، أرجوك... فهميني"

" أنا مش خالتك، ورانيا مش أختي، ومسمناش رانيا وماريا على فكرة!"

" إيه؟ أومال انتو مين؟!"

" أنا دكتور سلوى، واللي معايا دكتور كريمة، وأنت يا خالد، كنت محل تجربة لعقارين اكتشفناهم؛ واحد بيمحي الذاكرة تمامًا، والتاني بيرجعها"

شعرت أنَّ محقنةً انغرست برقبتي، فلم أعد أدري بما حولي

***

مقيدًا في مقعدي أجلس أمامهما، تتقاطر الدُّموع مِن عيني، أستمع إلى كلمات دكتور سلوى، الَّتي تقع على قلبي كوقع الأحجار على لوح زجاجي:

" التجربة كانت لدراسة تأثير العقار الأول من الناحية النفسية ومن الناحية العضوية، النتيجة مبهرة، بتخلي اللي قدامك كأنه طفل لسه مولود تقدر تشكله زي ما أنت عايز، بيمسح التجارب السابقة وكل حاجة تخص الحياة الشخصية وبيأثر في الطباع بشكل كبير حتى يكاد يكون بيمحيها، إنت مش يحيى، وسنك أكبر من ٢٥ سنة، وعمرك في حياتك ما عرفت أو حبيت تتكلم فرنساوي، أنت كمان دينك مختلف عن الدين اللي إحنا أقنعناك بيه! إنت حاليًا تقريبًا عكس كل حاجة كنتها زمان، الصور اللي بدأت تشوفها والذكريات اللي بدأت ترجعلك كانت بسبب إننا بدأنا نحطلك جرعات صغيرة من الدواء اللي بيرجع الذاكرة"

" انتو مجرمين!"

" لما ترجعلك الذاكرة هتعرف إننا مش كدة، كل حاجة تمت بإرادتك، أنت موقع عقد بموافقتك، وكنت عارف كل التفاصيل... دلوقتي هتاخد جرعة كبيرة من الدوا التاني وهترجعلك الذاكرة"

" وبعدين هتعملوا فيا إيه؟"

" مدة الدراسة لسه مخلصتش، هتفضل تحت عنينا... إحنا محتاجين ندرس الجزء النفسي بعد ما ترجعلك الذاكرة وتلاقي نفسك حد تاني، أو بمعنى أصح اتنين مختلفين في جسم واحد"

" أنا مستحيل أكون وافقت على حاجة بالبشاعة دي"

" متستعجلش، دلوقتي هتفتكر كل حاجة"

نظرتْ نظرةً ذات معنى إلى تلك الفتاة الَّتي تقف جانبي، فغرستْ محقنةً في عروقي، ثمَّ قالت كريمة:

" في خلال ٤٨ ساعة هترجعلك الذاكرة"

" أنا خايف!"

ردَّت كريمة بحنانها المعهود:

" متخافش، إحنا معاك"

" إنتو وحوش"

" إحنا إديناك حياة جديدة، إنت بشوية جهد تقدر تعمل شخصية تالتة أعظم من يحيى ومن خالد!"

" إنتو بتتعاملوا معايا على إني آلة!"

ردَّتْ سلوى على كلامي بانفعال:

" إنت مش عارف عظمة الاكتشاف ده!، أنت متخيل كم الناس المجرمة والمفسدة اللي ممكن نغير طبيعتها بحقنة واحدة؟ كم الناس اللي ممكن

نخلصهم من الالآم اللي شافوها وحسوها في حياتهم؟ إنت شاركت في إنجاز تفتخر بيه يا خالد"

قلتُ ودموعي تزداد:

" ليه لازم أرجع خالد؟ ليه عايزين توجعوني؟! كنتوا سبتوني أعيش يحيى وخلاص"

ربَّعت ذراعيها أمام صدرها وقالت بلهجة باردة:

" الاتفاق كان كدة، إحنا لازم نختبر الدوا المضاد، اللي لازم يكون موجود عشان البحث يكمل"

نطقتْ كريمة:

" إنت محتاج تنام دلوقتي، ولما تصحى هتبقى فاكر وفاهم"

خرجتا وتركتا الفتاة إلى جانبي تدسُّ في فمي قرص دواء، تناولته لأهرب مما أنا فيه، دعوت الله كثيرًا أنْ يكون هذا كابوسًا بشعًا أستيقظ منه على صوت خالتي رانيا، لتخبرني أنَّ موعد الإفطار قد حان، تساءلت كثيرًا عن أيٍّ وغد كنت كي أقبل بتجرِبة كهذه؟ جفوني تتثاقل وأشعر بأنَّ رأسي يزن الأطنان، هل سأنام وأنا مقيد بهذا الشَّكل؟ هل سيتم معاملتي كفئران التَّجارِب هكذا إلى الأبد؟

***

" وافق يا خالد، متترددش، دي هتبقى فرصة ليك مش هتتعوض"

رفع الشَّاب عينيه الرَّماديتين إلى وجه المرأة الَّتي تحدثه، تأمَّلها قليلًا، ثمَّ قال:

" إيه المقابل يا دوك؟"

" كنت عارفة إنك هتسأل... وعجبني جدًا سؤالك، أنا بحب الناس العملية اللي تعرف هات وخد"

" المقابل إيه يا دكتور سلوى؟"

" شقة في مكان كويس وعربية ووظيفة محترمة ومبلغ مادي كمان يأمنلك مستقبلك... خالد، أنا هغيرلك حياتك بالمعنى الحرفي للكلمة"

" وإيه أضرار الدوا ده؟"

" دي متفهمهاش أنت يا خالد..." غيرت نبرتها مِن الهدوء إلى الصَّرامة ثمَّ قالت:

" اخلص يا خالد، معانا ولا؟"

الآن أتذكر... أنا خالد عبدالعزيز، فتى فقير يسكن أحد الجحور، فاضتْ دموعي وأنا أستعيد كلَّ شيء عن حياتي، كنتُ فقيرًا نعم، ولكنَّني كنتُ إنسانًا، أما الآن فمَن أنا؟ يحيى أم خالد؟ أم جرذ معامل؟ مَن أنا حقًا؟ هل أنا يحيى الفتى الخجول المدلَّل؟ أم خالد الرَّجل الَّذي صارع الدُّنيا؟ ما طباعي حقًا؟ ما ديني؟ مَن هي الفتاة الَّتي أحبُّ حقًا؟ دينا راقصة الباليه الحسَّاسة؟ أم سوسن ذات اللِّسان الجريء؟ قلب مَن أمتلك أنا الآن؟ قلب خالد الَّذي يمتلئ بالنُّدوب؟ أم قلب يحيى النَّظيف؟ دلفتْ الطبيبتان فنظرتُ إليهما والدُّموع تفيض مِن عيني، وقلت:

" أنا افتكرت"

ردَّت على جملتي كريمة:

" إحنا عارفين إن الموضوع صعب"

قالت سلوى بنبرة هادئة:

" إنت لازم تخرج معانا دلوقتي؛ لأن فريق الدكاترة مستني برا يا خالد"

***

أجلس شارد العقل، تائهًا بين خلاياىَ، أحاول لمَّ شتات أفكاري، صوتان داخل عقلي لكل منهما نبرته، أسمع أفكار يحيى تهمس في أقصى اليسار، وأفكار خالد تصيح في أقصى اليمين، الكثير مِن الضَّجيج يسكن عقلي، يلقي الجميع الأسئلة فأجيبهم بكلمات لا أعلم عنها شيئًا، كأنَّني في معزل أنا وعقلي عنهم، ألم يفكر أحدهم في شعوري الآن؟ انتهى مجلسهم فعدتُ إلى غرفتي أتأمَّل وجهي في المرآة... أشعر أنَّ هناك خطًا يقسمه مِن المنتصف لقسمين؛ هذا ليحيى وذاك لخالد، أيُّ جريمة شنعاء ارتكبتها في حق نفسي؟ خرجتُ إلى الشُّرفة أتأمَّل نجوم السَّماء، أرجو المساعدة ولكنِّي لا أعلم بأيِّ دين أطلبها، دين خالد أم يحيى؟ غيَّرتُ نظري تجاه أضواء المدينة، هناك على الطَّرف الآخر يوجد مَن يحيا حياةً واحدةً، مَن يُحب، ويحلم، ويعيش، ويحقد، ويكره، ويموت بشخصيَّة واحدة، يستحيل أنْ أحتمل هذا التشتُّت يستحيل، أسرعتُ الخطى أخرج مِن الشُّرفة ثمَّ غرفتي، لاحظتُ أنَّهم أوصدوا الأبواب وأضافوا طاقم حراسة خوفًا منِّي ومِن هروبي، حمقى... إلى أين أهرب مِن نفسي؟ بحثت عنهما حتَّى وجدتُ كريمة، فقلتُ بصوت مبحوح:

" أنا ليا طلب يا دكتور"

" اتفضل يا خالد"

" بعد ما تخلص التجربة وتسلموا البحث وتوصلوا لكل اللي انتو عايزينه، أنا عايز حقنة كمان من الدواء ده"

" عايز تنسى تاني يا خالد؟"

" أنا مش هقدر أعيش كده يا دكتور، اعتبروه عمل إنساني حتى لو... حتى لو هتاخدوا كل حاجة ادتوهالي"

مطَّتْ شفتيها تفكِّر، بعد برهة ردَّت:

" ليك اللي أنت عايزه يا خالد"

شعرتُ بيد سلوى على كتفي يتبعه صوتها تقول:

" لا يا خالد، ده مش هيحصل"

" حرام عليك، أرجوك يا دكتور"

" أكبر عدو ليك هو نفسك يا خالد، ده هيبقى أكبر انتصار ليك"

" انتصار! ده جحيم"

" إنك تطلع من الجحيم ده عايش يبقى انتصار، دور على نفسك الحقيقية بين خالد وبين يحيى"

" تفتكري هلاقيها؟"

" أقف قدام المراية واسأل نفسك"

***

23

تأملتُ قرص الشَّمس الَّذي يودِّع السَّماء بعناق أخير، نظرتُ إلى الفتاة الجالسة أمامي

والَّتي تداعب الطِّفل الجالس على حجرها:

" عمرِك جربتِ تعيشي بشخصيتين؟" نظرتْ إليَّ بعينيها الخضراوتين فترة ثمَّ قالت:

" يا خالد، ساعات الواحد مش بيعرف يفهمك، كأنَّك فعلًا اتنين في واحد!"

" ما أنا فعلًا اتنين في واحد... اشربي العصير عشان نروح نشوف حياتنا"

***

القصَّة الثَّانية

(السَّاكن)

كان يبدو أنَّه درس مهم، انهمك الأستاذ في شرحه لمدة تزيد عن السَّاعة والنِّصف وانهمكتْ يدايَ في رسم لوحة متقنة لملامحه الَّتي غزاها الإرهاق، جبهة مغطاة بالعرق... عينان جاحظتان، أعطانا الأستاذ راحةً لخمس دقائق، لم أعرف أنَّه قد حان وقت الرَّاحة إلا عندما نظرتْ زميلتي الَّتي تجلس بجانبي إلى الورقة الَّتي أرسم فيها ثمَّ شقهتْ وقالت بحاجبين مرفوعين:

" منذ متى تجيدين الرَّسم؟"

وعندها حقًا خطر لي السُّؤال نفسه منذ متى وأنا أجيد الرَّسم؟ عندها وعندها فقط بدأتُ أُلاحظ التبدُّل الَّذي بدأ يعتريني... كنتُ أتحوَّل ببطء وببطء شديد إلى... إلى شيء آخر!

بدأ التَّغيُّر الملحوظ في الصِّفات يعتريني ثمَّ ينتقل بشكل تدريجي إلى أفراد أسرتي... كأنَّه مرض مُعد بدأته أنا، والغريب لا أحد يلاحظ سوايَ! هل حقًا هناك تغيُّر يعترينا أم أنَّه وهم كبير يعيش داخل عقلي أنا فقط؟

لا ليس وهمًا... اليوم أرى أخي لأول مرة في حياته يأكل السَّمك... أخي الَّذي كان في الماضي رائحة السَّمك تصيبه بالقيء المباشر، سعدتْ أمي بذلك وتوقَّعت أنَّه تغيَّر للأحسن، ولكن ماذا عن خالتي الَّتي أصبحت تميل إلى البرود بشكل لا يصدق بعدما كانت أقرب إلى عود ثقاب يشتعل مِن أقلِّ احتكاك؟!

الكثير مِن التَّغيُّر يعتري الجميع... في الصِّفات والطِّباع حتَّى لأقسم أنَّ ملامحهم أصبحتْ تتغيَّر!

جالسةً على سريري أفكر في معنى كلِّ هذا، أجرِّب مهارة الرَّسم الَّتي وجدُّت نفسي فجأةً أمتلكها، منذ متى وأنا أرسم؟ لم أفلح في حياتي أبدًا حتَّى في رسم وردة، كما أنَّ أسوأ الحصص عندي هي حصَّة التَّربية الفنِّية... كنت أعتبرها حصَّة الهُراء الدَّائم... كيف أجد نفسي الآن قادرةً على الرَّسم بهذه الدِّقة؟! فكَّرتُ كثيرًا حتَّى شعرت أنَّ رأسي يوشك على الانفجار، خرجتُ مِن غرفتي وطلبتُ مِن أمي أنْ تُعدَّ لي كوبًا مِن الشَّاي، منذ متى وأنا أحبُّ الشَّاي؟ الآن فقط أشعر أنَّني أشتهيه بقوَّة، ارتديتُ ملابسي سريعًا وخرجتُ... أحاول الهرب مِن أفكاري الَّتي تتساءل... اعتدتُ دائمًا أنْ أتساءل عن كلِّ شيء وفي كلِّ مرة كنت أجد الإجابة، أمَّا الآن فأنا لا أجدها بل وأشكُّ أصلًا في حقيقة وجود السؤال مِن عدمه!

أذوب وسط جموع المارَّة، أُصغي إلى الضَّجيج الَّذي لا يعينني، أراقب نظرات الباعة في متاجرهم، أُنصتُ إلى صياح الأطفال الغاضب، تُرى مَن منهم يشعر بما أشعر؟ مَن منهم يفكِّر مثلي؟ لا أحد، ويبدو أنَّني المجنونة الوحيدة الَّتي تلاحظ، هربتُ إلى شارع آخر أكثر هدوءًا، ثمَّ آخر وآخر إلى أنْ أصبحتُ في شارع خالٍ مِن المارَّة تمامًا، في المعتاد أرتجف مِن هذه الشَّوارع

ولكن الشَّجاعة أصبحت إحدى صفاتي الجديدة، جلستُ على إحدى العتبات، شهيق... زفير... صوت أنفاسي المتلاحق ثمَّ صوت يتساءل:

" تفكرين أكثر مِن اللازم أليس كذلك؟"

التفتتُ كالمدوغة نحو مصدر الصَّوت فرأيته، مراهقًا وسيمًا يقف على بعد خُطوات منِّي، نظرتُ إليه ثمَّ بدأ خوفي القديم يعود، نهضتُ فزعةً أحثُّ الخطى مبتعدةً، صاح وهو يخطو خلفي:

" لا تخافي... استخدمي الشَّجاعة الَّتي أهداها إليك السَّاكن!"

توقَّفت مكاني لثوانٍ، ثمَّ التفتتُ إليه، ما إنْ رأى وجهي حتَّى قال:

" لا أحد يلاحظ... أو هم يلاحظون ولكنهم يخافون مِن التَّفكير، يخافون مِن طرح الأسئلة الَّتي لا إجابة لها... يخافون مِن البحث، لذلك يقول المرء لنفسه:" ما المانع إذا تغيَّرت بعض صفاتي طالما لا ضرر هناك؟ كنت لا أحبُّ الحليب الآن أصبحت أحبُّه... لا مشكلة هناك، أما أنتِ فتفكِّرين وتبحثين... مثلي تمامًا لذلك تستحقي أنْ تجدي الإجابة""

خيَّم الصَّمت للحظات، رمقتْ عيناي الزَّائغتان الفتى فيهم ثمَّ نطقتُ:

" أ أ ننن ت..."

صمتتُ مِن جديد أحاول تجميع الكلمات، ابتلعتُ ريقي مُحاولِةً ترطيب حلقي الجاف ثمَّ قلتُ بصعوبة:

" أنت تفهم! مَن أنت؟"

اقترب منِّي بخُطوات سريعة ثمَّ مدَّ لي يده مصافحًا وقال:

" أنا لؤي وساكني يُدعى بُرام"

نظرتُ إلى يده الممتدَّة باتجاهي ولم أُبدِ أيِّ ردَّة فعل، سحب يده ثمَّ حكَّ مؤخرة رأسه في حرج وقال:

" يبدو أنَّك مازلتِ خائفة... ألا تريدين أنْ تفهمي ماذا هناك؟

" بال... بالطبع ول لكن..."

" حسنًا، لنجلس إذن ستكون جلسةً طويلةً"

قالها ثمَّ تربَّع على العتبة الَّتي كنت أجلس عليها منذ لحظات ولم يطلب منِّي الجلوس مرةً أخرى، شرع يثرثر في البداية عن نفسه وأنا أقف أمامه أرمقه في توجُّس... عقلي يُخبرني أنَّ هذا الفتى صالح، ولكن خوفي القديم يُخبرني أنْ أظلَّ متحفزةً للرَّكض في أيِّ وقت... يقول لؤي:

" وعندها بدأت ألاحظ... أتأمَّل... أتساءل عمَّا هناك... ليست هذه طباعي بالتَّأكيد، وعندها أهداني ساكني الجواب... شعب الأرض الحمراء قد بدأوا في احتلال الأجساد!"

اتَّسعتْ عيناي وأنا أستمع إلى كلماته، صمتَ لثوانٍ يزدرد لعابه ثمَّ أكمل:

" الأرض الحمراء كوكب يبعد عن كوكبنا مئات السِّنين الضَّوئية... تفصلنا عنه عشرات المجرَّات، بدأتْ الظُّروف المحيطة بكوكبهم تشير إلى استحالة الحياة، وبعد سنين ستبدأ شمسهم بالمرور بمراحل تطورها الطَّبيعية تبعث مِن الحرارة ما سيدمر كلَّ أشكال الحياة، وبعدها ستتحوَّل إلى عملاق أحمر يتمدَّد ليأكل مسارات الكواكب، وقبل كلِّ هذا سيكون كوكبهم كتلةً جرداء مِن الصُّخور... عندها فكَّر علماؤهم في المخرج فلم يجدوا بين عشرات

المجرَّات سوى كوكبنا الفسيح ليحتضن الشَّعبين! أرضنا السَّخية الَّتي تقدِّم العون لكلِّ مَن يحتاج إلى الحياة... ولكن كيف يتمُّ نقل شعب كوكب كامل لا تتجاوز معدلات أعمارهم الثَّمانين عامًا كلِّ هذه المسافة الهائلة؟ وقد وجد أحد علمائهم الحلَّ، كان الحلّ في جهاز طوَّره يستطيع فصل الرُّوح عن الجسد وإدخالها في جسد حيٍّ آخر مماثل له! بالطَّبع قَتل الجهاز في بدايته مئات الأرواح واستهلك عشرات السِّنين ولكنه كان أملهم الوحيد للنَّجاة، وبعد مجهود طال نجح الجهاز في نقل أرواح سكان ذلك الكوكب لتسكن مع أرواحنا ونتشارك في الجسد نفسه! أليس هذا رائعًا؟

ألقى سؤاله أمام عيني المتَّسعتين، هذا الفتى مجنون بالتَّأكيد ولكن عيناه توحي بصدق عجيب، كما أنَّ هناك مَن يهتف داخل عقلي أنَّه على حق، استجمعت كلماتي ثمَّ نطقتُ:

" أ أنت م مجنون!"

طوَّح يده في استهانة ثمَّ نهض وهو ينفض الغبار عن بنطاله:

" كما تريدين ولكنَّني أخبرتك الحقيقة لأن بُرام أراد ذلك، ساكنك لا يرتاح مع روحك المتقلِّبة الَّتي تلقي أسئلةً لن تجد لها إجابةً... لذلك أراد إخبارك قبل أن يصيبك الجنون..."

" ول ل ماذا لم يُخبرني هو؟"

" لقد درس صفاتك عن كثب... وجود صوت مسموع داخل عقلك يخبرك أنَّه ساكنك وأنَّه ضيف أبدي في جسدك... كان حتمًا سيسرِّع مِن عمليَّة إصابتك بالجنون لذلك تواصل مع بُرام وأخبره أنَّ المعلومة عن طريقي ستكون أسهل..."

بدأ رأسي يترنَّح... هذا الكمُّ مِن المعلومات غير المنطقيَّة يتجاوز قدرتي على التَّحمل، تماسكتُ ثمَّ سألته:

" وك كيف تواصل ساكني مع ما يُدعى بُرام هذا؟"

ردَّ في حماسة:

" تخاطر الأفكار؛ إنَّهم يتواصلون هكذا طوال الوقت، بل ويَجْرون مئات الأحاديث معًا حتَّى وإنْ كانت الأجساد الَّتي يسكنونها نائمةً، إنَّهم يفوقوننا في الكثير مِن القدرات"

" هل... هل هم بشر؟"

" هم بشر وهيئتهم كهيئاتنا... وكذلك الاحتياجات مِن الطَّعام والشَّراب... ولهم صفات شخصية تمامًا مثلنا... يغضبون... يحبُّون... يكرهون... ولا بد لصفاتهم مِن الظُّهور على أجساد ساكنيهم كما لا بد أنَّكِ لاحظتِ... آه للعلم عملية النَّقل ما زالت مستمرةً؛ لم ينفد سكان كوكبهم بعد، وهم أصدقاء - بالمناسبة- وصحَّتنا تهمهم كثيرًا لأنَّها -بشكل أو بآخر- أصبحت صحَّتهم... سيطرأ الكثير مِن التَّطور على هذا العالم في السِّنين القادمة... سيقدِّمون لنا تقنيَّتهم وخبراتهم وسنحيا معًا...

" و والموت... ماذا إنْ ماتت أحد الرَّوحين؟!"

" إنْ ماتت أحد الرَّوحين فستموت معها الأخرى مباشرةً"

قال تلك الكلمات ثمَّ نظر إلى ساعته وأردف:

" لقد تأخَّرت كثيرًا... عليَّ المغادرة"

صحتُ به:

" انتظر! لم أنتهِ بعد"

قال وهو يحثُّ الخُطى مبتعدًا عنِّي:

" ساكنكِ الآن يمكنه أنْ يجيبك!"

وقفت أتأمَّل لؤي وهو يبتعد، ثوانٍ ثمَّ اختفى مِن أمامي ووجدتُ نفسي وحيدةً في الشَّارع الخالي مِن جديد، هل حقًا هذا الهراء؟ جلستُ على العتبة أفكِّر... لحظات صمت رتيبة والكثير مِن الأفكار، همستُ بتردُّد:

" م مر ح ح حبا..."

وجدّتُ صوتًا داخل عقلي يردُّ بتهذيب:

" مرحبًا... كنتُ أنتظر منكِ الكلام"

نهضتُ فزعةً التفتُ حولي أبحث عن القائل... لقد كان الصَّوت واثقًا قويًا واضحًا... لم تسمعه أذنايَ أبدًا كان داخل عقلي أنا... ليس صوت أفكاري المعتاد... لقد كان صوت... صوت السَّاكن!

تزايدتْ ضربات قلبي واضطرب تنفُّسي وشرعتُ أسعل... صوته الهادئ مِن جديد يهمس داخل عقلي:

" اهدئي اهدئي... كلُّ شيء على ما يرام... أعرف أنَّ الأمر صعب، ولكن لا تقلقي سنتجاوزه معًا وستتقبَّلين..."

مِن بين سعالي نطقتُ بصعوبة:

" أتقبَّل ماذا؟ هل حقًا هذا الهراء؟ لقد جننتُ بالتَّأكيد!"

جاء صوته حازمًا هذه المرَّة وهو يأمرني:

" أخرجي دواؤكِ مِن الحقيبة وتناوليه الآن"

امتثلتُ لأمره لأنَّني لم أكن أستطيع التَّنفُّس حقًا، أخرجت علبة الدَّواء وداخل أنفي أدخلتها وأعطيتُ نفسي جرعةً تسمح لي بالتَّنفُّس... لحظات وبدأ مفعول الدَّواء السِّحري يعمل وتنفُّسي يعود بسهولة... لحظات صمت مرَّتْ ثمَّ صوته الهادئ يتحدَّث:

" اهدئي يا (نفيسة)... بالمناسبة جميل اسمك ونادر... تمامًا كنُدرة عينيكِ الرَّماديتين... ما رأيكِ أنْ نخرج مِن هذا الشَّارع الكئيب؟ نحو زحام النَّاس ومتنفَّس الحياة؟ ما رأيكِ بكوب مِن عصير الرُّمان؟ أعلم أنَّكِ تحبينه وأنا كذلك..."

شرع يثرثر عن نفسه وطباعه وعاداته وأنا أستمع... لم يكن هذا هراءً لقد كان حقًا بداخلي... يستمع إلى أفكاري ويجيب... يهديني حلولًا وإجابات لأسئلتي... كان فصيحًا عاقلًا حكيمًا... وقد أدركتُ أنَّنا سنصبح أصدقاءً، كان يعشق الرَّسم والقراءة... عقله يعمل وقلبه مليء بالحياة وقد أهداني الكثير مِن المعرفة عن كوكبه وتقدُّمه، وقد أهديته إجابات لأسئلته حول عالمنا، أصبحت أجلس بالسَّاعات وحيدةً مع ساكني نثرثر حول الفيزياء والكواكب والمذنَّبات، أو حول علم الأحياء ومدى تشابه أجسادنا، ألقيت عليه يومًا سؤالًا:

" كيف سيتم تكاثركم وأنتم أرواح محبوسة داخلنا؟"

" تكاثركم يعني تكاثرنا... سيولد المولود بروح واحدة ولكنها دمج لأربعة أرواح اثنان أرضيان واثنان منَّا وسنكون جزءً مِن روحه الجديدة... أفكارنا وصفاتنا بداخله"

سألته مرة أخرى:

" هل كان لك حق حرية اختيار الجسد الَّذي ستسكنه؟"

" لا، كان الأمر عشوائيًا تمامًا و..."

و شرع يشرح كيف تتمُّ عملية النَّقل والاختيار، شرح لي عن (تكنولوجيا) كوكبهم المعقدة وكيف كان كوكبًا فاتنًا يمتلئ بالخيرات، وصف لي صفاته ولون شعره ونمط ملابسه...، أخبرني أنَّ صاحب الجسد هو الرُّوح الأقوى والمسؤولة عن الجسد ووظائفه الحيوية والحركات الإرادية وأنَّ السَّاكن ضيف دائم فقط يشارك ببعض صفاته الشَّخصية، أخبرني أنَّنا أصبحنا مترابطين وسنبقى هكذا للأبد... أخبرني بكلِّ حب... بكلِّ عطف... أخبرني أنَّه يفهمني ويسمع حوار أفكاري الهائجة المتعطِّشة دائمًا إلى المعرفة والبحث... أخبرَني أنَّه يحبُّني وأخبرته أنَّني كذلك... وجدت داخل جسدي روحًا أخرى تبدِّد وحدتي وتصبح صديقةً دائمةً... صديق مصلحتنا واحدة وجسدنا واحد ووجودنا مشترك... نعم لقد أحببتُ السَّاكن وتقبَّلتُ وجوده... أعلم ما سيتَّهمني به الجميع عند معرفتهم بما يدور في ذهني، الجنون سيكون تهمتي الدَّائمة... لذلك لم أفصح عن أفكاري... البشر أغبياء محدودي الفكر والسَّاكن يفهمني وهذا ما أريده وأكتفي به...

وفي كلِّ يوم سأجلس معه نتبادل الأفكار... وفي كلِّ ساعة ومع كلِّ نَفَسٍ يخرج منِّي سيكون السَّاكن هُنا إلى جواري... وفي كلِّ لحظة سنكون معًا حتَّى تفنى إحدى الرَّوحين لتلحقها الأخرى إلى الأبد.

القصَّة الثَّالثة

(مدخل منفلوط)

الشَّمس تقترب مِن غروبها ليزحف اللَّون الأسود على السَّماء ببطء، تأملتُ منظر التُّرعة مِن النَّافذة، يسير القطار بسرعة وقد بدأ الظَّلام يزداد، لم أُرِد للَّيل أنْ يأتي عليَّ، تمهَّل قليلًا أيها الظَّلام، اللَّيل سِتَار لكلِّ المصائب، هذه فكرة تلازمني منذ الطُّفولة أعلم تمامًا أنَّها فكرة خاطئة ولكن هذا الظَّلام يجثم على أنفاسي

" والنبي يا حادة صحيني على مدخل منفلوط"

هكذا قالها الشَّاب الضَّخم الَّذي يجلس في المقعد الموازي لي مِن الجهة الأخرى وهو يهبُّ مِن كرسيه واقفًا

تلك مرَّتي الأولى الَّتي أركب فيها قطارًا، لستُ خبيرةً في المواصلات داخل مصر بين المحافظات؛ لذلك أصرَّت أمي على أنْ أستقِّل القطار:

" اسمعي الكلام يا بتي وخدي القطر، القطر أمان وطريقه معروف"

ربَّما هي محقَّة فطوال عمري وأنا بعيدة عن هذه البلاد بكلِّ ما فيها

" والنبي يا حادة اوعي تنسي الله يخليكي أنا لوحدي ومش معايا حد"

هكذا قال الشَّاب من جديد بلهجته الَّتي تبدّل الجيم بالدَّال، أجابته المرأة الَّتي تجلس إلى جانبه تتدَّثر بالسَّواد:

" متخافش يا ابني هصحيك متقلقش"

شكرها الشَّاب ثمَّ وضع قدمه على المقعد وقفز ليجلس على الجزء المعدني المخصَّص للحقائب، أزاح الحقائب إلى الخلف ثمَّ اضطجع وأغمض عينيه، شاب أسمر لا تخلو ملامحه مِن وسامة، لماذا هذا الإصرار على استيقاظه عند مدخل منفلوط؟ لا بد أنَّها محطَّته الَّتي سيترجَّل بها، عدت أنظر إلى النَّافذة ثمَّ أسندت رأسي إلى ظهر المقعد وأغمضت عيني، فتحتهما مجددًا عندما شعرت بأنَّ القطار يهدئ مِن سرعته، قرَّبت رأسي حتَّى كدت أخرجها مِن النَّافذة لأعلم أين نحن

على لافتة بيضاء كُتب (بني مزار)، ما زال أمامي الكثير إذن، توقَّف القطار لدقائق ثمَّ عَلا بوقه يعلن استعداده للرَّحيل، أغمضتُ عيناي أحاول النَّوم، أحتضن حقيبتي بين ذراعي

"حرص ولا تخونش"

مَن أخبرني بهذا المثل؟ لا أذكر، يفشل النَّوم في التسلُّل إلى عيني وسط هذا الضَّجيج، تبًا! ألم يجد أبي قطارًا أفضل مِن هذا؟ باعة جائلون أصواتهم تصُّم الآذان، ضجيج أطفال يريدون الحلوى مِن هذا البائع أو ذاك، فتحتُ عيني لأجد الظلام قد تمكَّن مِن الخارج، ظلام دامس يُلقي وجهًا كئيبًا على التُّرعة الَّتي كانت فاتنةً منذ قليل، تحوَّلتْ المزروعات على جانبي التُّرعة إلى أشباح

بكماء يقطع صمتها صوت ضجيج القطار، لا أعلم متى تسلَّل النُّعاس إلى عيني!

" مدخل منفلللللووووووووطططططط، مدخل منفلللووووطططططط"

استيقظتُ على إثر يد تلكزني بعنف، هذه الجملة يصدح بها صوت غليظ في الأرجاء، ماذا هناك؟ جوّ توتُّر عارم، الباعة كفُّوا عن النِّداء على بضائعهم وتكدَّس عدد منهم على جانبي القطار بين البابين المغلقين، غطى بعضهم أعينه بشرائط قماشيَّة والبعض الآخر في طريقه لفعل الشَّيء ذاته، هل أرى هذا حقًا؟ أم أنَّ إضاءة القطار الخافتة لا تساعدني؟

نظرتُ إلى صاحب اليد الَّتي لكزتني فوجدتُّه ذلك المراهق الَّذي كان يجلس أمامي، قال لي بصوت غليظ وعينان جاحظتان

" مدخل منفلوط"

" وأنا مالي؟ أنا مش نازلة منفلوط"

" بقولك مدخل منفلوط إنتِ غبية ولا إيه!"

كدت أنْ أردَّ عليه ولكنَّه صرف بصره عنِّي وأخرج لُفافةً قماشيةً غطَّى بها عينيه، في اللَّحظة ذاتها قالت المرأة الَّتي تجلس بجانبي وهي تحكم ربط لفافة القماش حول عيني رضيعها الَّذي يرفض ويحرِّك وجهه بعنف

" غطي عينك يا بتي بأي قماشة اربطيها كويس حوالين عينيكِ لازم متبقيش شايفة حاجة، قدامك كحل"

" ليه؟"

" متسأليش بسرعة يا بتي بسرعة"

" بس أنا مش..."

بترتْ المرأة جملتي وصاحتْ:

" بأي حاجة بأي حاجة، اقلعي طرحتك دي ولفيها حوالين عينك، أي قماشة بسرعة"

قالت تلك الكلمات ثمَّ خلعتْ حجابها وأحكمتْ ربطه حول عينيها

" يا مصيبتي نسيت أصحي الواد اللي نايم فوق!"

هكذا صرخت المرأة الَّتي أوصاها الشَّاب بإيقاظه، قامتْ مِن مقعدها توقظه بسرعة ولم تفكَّ عصابتها مِن على عينيها، أصابني هذا الجو بالتوتُّر؛ شعرتُ أنَّ قلبي يريد القفز مِن حلقي، بيدين مرتجفتين أفرغتُ الكيس القماشي الَّذي يحمل الطَّعام والماء و مزَّقته نصفين، ثمَّ أحكمتُ ربطه حول عيني:

" لازم متبقيش شايفة حاجة قدامك كحل" نفَّذت وصيَّة المرأة ساعدني في ذلك لون القماش الأسود، دقائق مرَّت هدأ خلالها الجميع لا أصوات باعة تخترق الأذن، لا صراخ أطفال لا أحاديث عن أسعار كيلو المانجو، ماذا هناك بالله؟ هل هي حالة جنون جماعية؟ هل هي خطة للسَّرقة؟ انتفضتُ للخاطر الأخير فاحتضنتُ حقيبتي بين ذراعي، دقائق صامتة تمر، أكاد أسمع صوت دقَّات قلبي، هل أشعر بإضاءة تتسرَّب عبر أنسجة القماش أم أنَّ هذا مجرد هذيان؟

" الخلاااااص يا جماعة الخلاااااص"

صاح بها صوت مِن آخر العربة فشعرتُ بمَن حولي يتنفَّسون الصَّعداء، عاد الضَّجيج تدريجيًا وشعرتُ بيد المرأة تلكزني ثمَّ تقول:

" الخلاص شيلي القماشة"

أزلتها بسرعة، عاد الباعة يجوبون القطار وأصواتهم تصدح مِن النَّوافذ لتوقظ الجمادات، عاد الرُّكاب للثرثرة عن أسعار الخَضراوات والفاكهة الَّتي تتزايد باستمرار، هل زاد صخبهم أم أنَّ لحظات الهدوء الَّتي مرَّت جعلتني أتوهَّم هذا؟ أحدهم يتعمَّد القفز مِن مقعده ثمَّ يعود للجلوس مِن جديد، ثمَّ لا أحد يذكر ما حدث، في عقلي يصدح سؤال واحد "ما كان هذا؟" هل هو نوع مِن الجهل الَّذي يعشش في القرى؟ نظرتُ إلى المرأة الَّتي بجواري، سمراء تتربَّع شامة كبيرة على خدِّها الأيمن، أنفها كبير تحته فم رقيق جذاب زحفت التَّجاعيد على جانبي عينيها وفمها، عيناها واسعتان بهتتْ لمعتهما جراء صفعات الحياة، شعرتْ بنظراتي فقالت مِن دون أنْ تحرِّك عينيها عن صغيرها:

" عايزة تفهمي صح؟"

" إيه اللي حصل ده؟"

" إنتِ مش من هنا ولا إيه؟"

" لا من هنا بس... بس إحنا كنا عايشين برا لفترة ولسه راجعين من فترة قريبة"

نظرتْ إليَّ ثمَّ قالت وعيناها تتَّسعان:

" الليل هو الوقت، طول ما الضلمة موجودة التفسير ممنوع"

ظللتُ صامتةً لثوانٍ أستوعب ما قالته ثمَّ تكلَّمتُ:

" وإيه علاقة ده بده أنا بس عايزة أفهم إيه..."

قاطعتني:

" متفهميش! النهار بيحمي، نور السمس بيحرق، بيمنع من خطف الأبصار، مع أول لمعة لنور السمس تقدري تاخدي تفسير"

عادتْ تنظر إلى صغيرها وتهدهده على حجرها حتَّى يهدأ في إشارة لنهاية الحوار، هل هذه المرأة مجنونة؟ حوَّلتُ نظري إلى المراهق الَّذي يجلس أمامي فوجدتُّه يتأمَّلني، ما إنْ اصطدمتْ عيناه بعيني قال:

" اسمعي الكلام النهار بيحمي ونور الشمس بيحرق، التفسير في النهار بس، غير كده يبقى إنت بتحضري العفريت اللي مش هتعرفي تصرفيه"

نظرتُ إليه بعينين زائغتين أفكِّر، معنى الحديث أنَّهم سيفسرون لي في الصَّباح، ماذا سيفسرون؟ أيُّ عفريت؟ ثمَّ هل سأبقى في هذا القطار حتَّى الصَّباح؟ بالطَّبع لا، ربَّما فقط ساعتين وأصل وجهتي، مَن سيفسِّر لي إذن؟ لاحت لي سخافة كلَّ هذا الآن فقط سأنام، نظرتُ إلى هاتفي فوجدتها السابعة وخمس دقائق، أغمضتُ عيني وأنا أسند رأسي إلى ظهر المقعد، ما هذا الضَّوء القوي؟ ضوء في آخر الممرِّ الَّذي يبدو بلا نهاية! أشعر بألم في عيني نتيجة هذا الضَّوء، يا إلهي لا أستطيع إغلاق عيني، تترنَّح فتاة وسط هذا الضَّوء الَّذي بدأ يخفتُ عندما ظهرتْ، شعرها يصل إلى منتصف ظهرها مجعدًا قاتم السَّواد، مددتُ عنقي أتطلَّع إلى ملامحها، لم أرَ في حياتي وجهًا أشد فتنةً مِن هذا الوجه! كيف يُوصف؟ كيف يُعبَّر عنه؟ هل سبق ورأيتَ البدر مكتملًا في السَّماء؟ لا حتَّى إنْ شبَّهتها به فسأظلمها.

ربَّما... ربَّما هي شمس متوهِّجة تداعبها الغيمات على استحياء! لقد خفتتْ الإضاءة لأنَّ إضاءة وجهها تكفي، لا أقصد المعنى المجازي للكلام، إنَّ وجهها حقًّا يضيء، إضاءته تزداد فيكتسب حرارةً كلهيب الشَّمس تقترب منِّي، أشعر بألم يخترق عيني، هل تؤلم رؤية الجمال إلى هذا الحد؟

أشعر بالعجز لا أستطيع إغلاق عيني

" قومي قومي بسررررعةةةة"

استيقظتُ مِن ذلك الحلم على صوت المرأة ويدها الَّتي تهزُّني بعنف، ماذا تريد هذه المجنونة؟ ثمَّ ما هذا الألم الَّذي يغزو عيناي نظرتُ إليها فنطقتْ:

" اوعي تنامي تاني، بعد منفلوط محدش ينام"

" إيه! نزل أمر تحريم؟"

" اسمعي الكلام يا بتي لمصلحتك"

لا أعلم، ولكن نظرات هذه السَّيدة تريبني، لا أنكر أنَّها تحمل بعض الصِّدق، ولكن هناك شعور بعدم الرَّاحة يتخلَّلني، نظرتُ إلى هاتفي فوجدتُّها السَّابعة وست دقائق! لقد غفوت دقيقةً تقريبًا أو أقل! كيف هذا؟ وكيف جاءني النَّوم بهذه السُّرعة؟ وما هذا الألم الحقيقي الَّذي يخترق عيني؟ فتحتُ هاتفي أحاول تزجية الوقت، أعرف أنَّ النَّاس تحبُّ الثرثرة لماذا لا يثرثرون حول ما حدث؟ ما قوَّة الشَّيء الَّذي يمنع التَّفسير؟ هل هو وهم يعشِّش داخل عقولهم؟ لا شيء يضاهي قوَّة الوهم على العقل، مرَّت السَّاعتان المتبقِّيتان لي فترجَّلتُ في محطتي، مِن المفترض أنْ ينتظرني أبي هنا، جلستُ على أحد المقاعد وأمسكتُ هاتفي أتَّصل به، المحطة خالية مِن البشر تقريبًا، لحظات بعد الاتِّصال حتَّى رأيت أبي يقف على الرَّصيف المقابل

يشير إليَّ، صعدت الدَّرج لأعبر إلى الجهة الأخرى، ما إنْ اقتربتُ منه حتَّى صاح:

" رحلتك كانت عاملة إزاي؟"

" متعبة طبعًا، ده سؤال! دي آخر مرة في حياتي هركب قطر"

قهقه أبي ثمَّ قال وهو يحمل حقيبتي عني:

" تعمدت أحجزلك في أرخص قطر عشان عضمك ينشف شوية وتشوفي الطبقة التانية من الناس اللي عمرك ما اتعاملتي معاها"

" حرام عليك يا بابا والله"

ضحك مِن جديد، فقلتُ وأنا أتذكَّر شيئًا:

" بابا إيه حكاية مدخل منفلوط دي"

زادتْ ضحكاته وعلتْ، نطق وهو يغالبها:

" حلو حلو شكل قعدتك في القطر فرجتك على أساطير بلدنا الحلوة"

" يا بابا بقا قولي إيه الحكاية"

" إنتِ سمعتي إيه؟"

" وأنا راجعة ليِّل علينا الليل وعند مدخل منفلوط الناس غطت عينيها بقماش وحاجات عجيبة كده ومحدش عمل كده وإحنا رايحين على فكرة لما عدينا على منفلوط"

" عشان وانتو رايحين كان صبح"

" أيوة!"

" وإنتِ عملتِ زيهم وغطيتِ عينك؟"

" أيوة طبعًا"

قهقه أبي مِن جديد ثمَّ قال وهو يدلف إلى سيارته الَّتي تقف أمام المحطة:

" بقا بتي المتعلمة اللي على وشك إنها تدخل أحسن جامعة في مصر تصدق العبط ده؟"

قلتُ بتذمر بعد أنْ اصطدم رأسي بسقف السَّيارة وأنا أتعجَّل الرُّكوب:

" يا بابا بقا! على فكرة إنت لو كنت مكاني كنت عملت نفس الحاجة أنا كنت مرعوبة والناس اللي حواليا وتروني... المهم بس إيه التفسير؟"

" التفسير يا..."

قاطعته بسرعة:

" إنت هتفسر عادي كده وإحنا لسه بالليل؟"

" سيبك بس من العبط ده واسمعيني"

حول لهجته مِن العاميَّة الصَّعيدية إلى العربية الفصحى الَّذي هو أستاذ لها في الجامعة، هذه هي عادة أبي يعشق الفصحى ويحبُّ التَّحدث بها عندما يحكي إحدى الأساطير:

" يُحكى أنَّه في زمن مِن الأزما..."

" لا بابا معلش ممكن تختصر؟"

نظر إليَّ بعينيه نظرةً ناريةً فأجفلْتُ، لقد بدأ أبي بتقمُّص دور أستاذ الجامعة؛ لذا عليَّ أنْ أستمع وأخرس حتَّى لا يلقي بي تحت عجلات السَّيارة الَّتي نركبها، أعاد جملته الَّتي بترتُها أنا ثمَّ أكمل:

" الأزمان فتاة فاتنة في السَّابعة عشر مِن عمرها، جميلة حتَّى ليستحي القمر مِن جمالها، تركض مسرعةً في المحطة تريد اللِّحاق بالقطار الَّذي بدأ يتحرَّك، سرعة القطار تزيد ثمَّ تزيد وتزيد معها سرعة الفتاة على الدَّرج حتَّى تلحق به، وصلتْ لاهثةً إلى الرَّصيف الَّذي يتحرَّك مِن عليه القطار، لحظة وصولها كانت لحظة غروب الشَّمس وتواريها في مكمنها الأزلي، صاح أحدهم بها أنَّه لا ينبغي لها ركوب القطار سيسحبها تحته، تجاهلتْ صرخاته ثمَّ وضعتْ قدمها الأولى على المدخل الأول للعربة قبل الأخيرة مِن القطار، لم تنجح في ركوب القطار وآخر ما سمعه النَّاس صرختها المدوِّية تحت عجلات القطار!"

صحتُ بفزع:

" ماتت!"

أكمل أبي يتجاهل سؤالي الغبي:

" بعد مرور القطار اجتمع النَّاس فوجدوا أشلاءها على السِّكة، وبعد هذا أصبحت الفتاة تظهر ليلًا لراكبي القطار مَن لم يُغطِّ منهم عينيه بلفافة قماش حتَّى وإنْ كان نائمًا تسحب بصره منه بعد أنْ تَمُنُّ عليه برؤية وجهها الفاتن الَّذي لا مثيل له"

ألقيت سؤالًا بالفصحى مجاراةً لأبي:

" ولماذا تظهر عند ما يُدعى مدخل منفلوط بالذَّات؟"

ردَّ أبي الَّذي بدا سعيدًا لسؤالي الَّذي صغته بالفصحى:

" لأنَّ هذا هو مكان قريتها والمكان الَّذي خرجت منه للمرَّة الأخيرة لتلحق بالقطار، ثمَّ هو ليس مدخل مدينة منفلوط الفعلي ولكن النَّاس أصبحوا يستعيضون عن ذكرها بقولهم مدخل منفلوط، لأنَّ ذكرها أو ذكر قصتها ليلًا يأتي بها لتحلَّ عقابًا قاسيًا على مَن في المكان الَّذي ذُكرت به"

" ومَن ينام بعد مدخل منفلوط تزوره في أحلامه حتَّى تسحب بصره؟"

" بالضَّبط، والجدير بالذِّكر أنَّ النُّعاس يأتي للرُّكاب بعد مدخل منفلوط بشكل ملحوظ، ويأتي سريعًا جدًا، يكفي أنْ يُغمض المرء عينيه حتَّى يراها؛ لذلك يحاول النَّاس بكل طاقتهم ألا يناموا كما يوقظون مَن غفل ونام، بعد موتها بليلة يقال أنَّه سُحب بَصر جميع ركاب القطارات الَّتي مرَّت وتكرَّر الأمر كثيرًا حتَّى وُلدت الأسطورة"

" بابا إنتَ واثق إنها أسطورة؟"

قال باسمًا:

" عقلك خف ولا إيه؟"

" هي بتظهر لابسة فستان أبيض كأنه بينور كده؟"

" آه وصفها بيقول كده عرفتي منين؟"

" لا يا بابا أصلها قاعدة في الكنبة اللي ورا"

كان آخر ما رأيته أبي بملامحه العجوز يلتفتُ مذعورًا وبعدها حلَّ الظَّلام الدَّائم.

القصّة الرّابعة

(نسخة خامسة)

الملل يفترسني كالعادة، هناك عشرات الأعمال الّتي يجب عليَّ القيام بها، كسلي يمنعني وضميري يؤنِّبني، نهضتُ بتثاقل إلى دورة المياه غسلتُ وجهي ثمَّ نظرتُ إلى ملامحي عبر المرآة، "يالبشاعة هذا الأنف"، صوت مِن الخلف يُخبرني أنَّه يعاني المشكلة نفسها، التفتتُ مذعورًا وقد بدأ قلبي يتواثب... كهل خمسيني يبتسم في ودٍّ:

"كما أنَّني أعاني مِن مشكلاتك نفسها"

هكذا نطق ثمَّ رفع يده يعدِّد على أصابعه:

" الكسل، الملل، حبوب البشرة الدُّهنيَّة وغيرهم الكثير، نسختنا الثَّالثة تعاني المشكلات نفسها أيضًا"

نطقتُ بصعوبة وكأنَّ الحروف تتواثب للهرب منِّي:

"م م ما أنت؟"

أجابني:

" بل قل مَن أنت؟ أنا (مطر) نسختك رقم خمسة جئتك مِن كون مواز، نحتاجك في مهمة"

شعرتُ بثقل في رأسي وبعدها وجدتُّ نفسي على سريري ووجه مطر أمامي يبتسم...

أتاح لي قرب المسافة التَّحديق في قسمات وجهه؛ أنف كبير وعينان بُنِّيتان تناثرتْ حولهما الخطوط الرَّفيعة، كانت ملامحي تمامًا فقط مع فارق ثلاثين سنةً، نهضتُ سريعًا وركضتُ باتجاه باب غرفتي استوقفني ممسكًا يدي قائلًا:

" اهدأ"

نظرتُ في عينيه مباشرةً والغريب أنَّني هدأت، ابتسم مِن جديد ثمَّ قال:

" لا تخف لن أؤذيك"

وجدتُ نفسي أقول:

" تتصنَّع اللُّطف بشكل مبتذل، تصرف على طبيعتك"

" ولكنِّي لا أتصنَّع اللُّطف!" أجابني.

" تقول أنَّك نسختي الخامسة!"

" هذا صحيح"

"إذن أنتَ تتصنَّع اللُّطف لأنَّني لم أكن لطيفًا يومًا"

" مِن الجيد أنَّك تتفهَّم بسرعة، يبدو أنَّ ذكاءك يفوق ذكاء(ميزان)"

" نسختنا الثَّالثة؟"

" نعم"

" كيف يكون هناك اختلاف بين النُّسخ؟"

" النُّسخ تُولَد بتطابق تام، ولكن لا تنسَ أنَّ البيئات والأُسَر وطرق التَّربية ونمط الحياة أيضًا مختلف، أَجِدُك تتقبَّل سريعًا عكس (ميزان) الَّذي ملأ الدُّنيا صراخًا"

" ماذا تريد؟ وكيف أتيتَ؟"

" كيف أتيتُ هذا يتطلَّب الكثير مِن الشَّرح وفي النِّهاية لن تفهم الأمر بشكل كامل، أمَّا ماذا أريد فهذا هو مربط الفَرَس"

رمقته بنظرات مهتمَّة فظهرتْ على وجهه علامات الاستمتاع ثمَّ أردف:

" إنَّنا نحتاج إلى فتاة!"

" ماذا؟ وهل تراني فتاة أمامك؟"

" افهم الأمر، نريد منك جلب فتاة هنا إلى دارك وفقط ستنتهي مهمتك"

" نعم! ولماذا أقبل؟ ولماذا لا تفعل أنت ذلك؟!"

" عليك أنْ تقبل"

" ولماذا؟"

" كي لا يكون مصيرك مثل (ميزان)"

قال تلك الكلمات ثمَّ وجدتُ صورةً تقفز إلى عقلي؛ جثَّة رجل بلا رأس، وجدت (مطر) يرفع كيسًا بلاستيكيًا شفافًا تملؤه الدِّماء، بداخله جثَّة جاحظة العينين ثمَّ قال:

" قل مرحبًا لرأس (ميزان)"

لم أحتمل ما رأيتُ فأفرغتُ معدتي، انتظرني حتَّى انتهيتُ ثمَّ قال بلهجة جدِّيَّة:

" لم أُصَّدر إلى عقلك صورة النُّسخة رقم ثمانية رفقًا بحالك، أراعي أنَّكم شعب ما زلتم تحتفظون بالمشاعر، ولم يصلكم مدى التَّقدُّم الَّذي يخلِّصكم منها"

رفعتُ إليه عينين متوسِّلتين فقال:

" ليس الأمر صعبًا، فقط فتاة تجلبها إلى دارك، وقتها ستنتهي مهمتك ولن تراني مِن جديد"

استمررتُ بالتَّحديق به ولم أنطق فأردف:

" أنا مدين لك بالتَّفسير، حسنًا؛ أولًا لا أستطيع أنْ أظهر لأيِّ شخص على هذا الكوكب سواك، فقط يُسمح لنا بالظُّهور لنسختنا لذلك أنا أحتاج إليكَ، ثانيًا أصاب مرض غامض النِّساء على كوكبنا، يُدمر قدرتهنَّ الإنجابية تمامًا، على مدى سنوات فشلنا في إيجاد العلاج، وكمحاولة

أخيرة لمنع انقراض نوعنا سنلجأ إلى تجرِبة الأمر على فتاة مِن عالمكم؛ ربَّما تقاوم المرض وتمنحنا دماؤها فرصة العلاج، كلُّ ما عليك هو أنْ تجلب لي فتاةً بالغةً ولم يسبق لها الزَّواج"

نظرتُ إليه بعينين زائغتين فأكمل:

" زميلتك في الجامعة أو ابنة خالك أو عمك، لا يهم، المهم أنْ تضمن لي أنَّها بِكر كما تقولون"

نطقتُ:

" أمهلني مُدَّة"

قال ببرود:

" لا مدَّة، لا يُعقل أنَّك لا تعرف أيَّ فتاة؟ ارفع هاتفك وادع واحدةً إلى هنا، هيَّا وإلا..."

أشار إلى رقبتي ثمَّ ابتسم، فتحتُ هاتفي ويدي ترتجف أبحث في قائمة الأسماء، استقرَّتْ يدي على رنيم- ابنة خالي- ضغطتُ زر الاتِّصال وانتظرتُ الرَّد لحظات، وبعد أنْ سمعت صوتها النَّاعم يُجيب قلت:

"رنيم... هل أنتِ بالمدينة؟... ممتاز، تعالي إلى منزلي فورًا، هناك أمر طارئ لا أستطيع قوله الآن... هيَّا بسرعة"

أغلقتُ الخطَّ وأنا أعلم أنَّها ستأتي، حتمًا ستأتي ولن تُخبر أحدًا بذلك، (رنيم) صديقة طفولتي تثق بي، مضتْ نصف ساعة كنصف قرن، رنَّ جرس منزلي هرعتُ لأفتح الباب فاستوقفني (مطر) وقال:

" سأنتظر هنا، وأنت أدخلها هذه الغرفة ثمَّ أغلق الباب"

هززتُ رأسي ثمَّ خرجتُ مِن الغرفة وفتحتُ الباب، وجه (رنيم) القلق يسألني ماذا هناك، فقلتُ:

"عمَّتك، عـ.. عمَّتك بغرفتي فاقدةً للوعي ولا أعلم ماذا أفعل"

ألقتْ حقيبة يدها على الطَّاولة وركضتْ إلى الغرفة، ركضتُ خلفها ثمَّ أغلقتُ الباب مِن الخارج بالمِفتاح، سمعتُ صرختها وبعدها انقطع الصَّوت، فتحتُ الباب بيدين مرتجفتين فوجدتُّها فارغةً ولا أثر لمخلوق...

***

القصَّة الخامسة

(حين تقتصُّ امرأة)

كنتُ أتأمَّل القطَّ الغافي عند قدمي عندما تذكَّرتها، علمتُ دائمًا أنَّها تمتلك قدرًا مِن القسوة، ملامحها الثَّلجية دائمًا توحي بذلك، ولكنِّي لم أجد أبدًا تلك القسوة معي؛ فهي على الرّغم مِن كلِّ فوارق الاختلاف بيننا كنتُ أعتبرها صديقتي الوحيدة، حاولتُ مرارًا أنْ أجد إحدى نقاط التَّشابه بيني وبينها وفي كلِّ مرَّة كان الفشل مصيري، هل يُمكن أنْ أُسمِّي ما فعلَتْهُ قسوة؟ أم هو دفاع مستميت عن الحقِّ؟ وأيُّ حقٍّ؟ إنَّه حقِّي وحقُّ كلِّ أنثى تحيا على هذا الكوكب، هي تمتلك القوَّة لذلك تقتصُّ للضُّعفاء أمثالي، أتذكَّر جلوسي أمامها وهي تقوم بذلك، لم ترتجف يدها قط ولم تختلج عيناها، كانت واثقةً ثابتةً كأنَّها... كأنَّها تفعل شيئًا اعتياديًا، وأنا كان كياني يرتجف... يرتجف سعادةً بحقِّي الَّذي يعود جزءًا منه الآن وأمام عيناي، يرتجف خوفًا مِن تلك المرأة الَّتي تقف أمامي والَّتي تُثبتُ دائمًا أنَّها استثنائية حتَّى في سبل الانتقام!

كانت طبيبةً "جزارة" كما كان يُطْلِق عليها ذلك الوغد دائمًا، جميلةً وواثقةً وقويةً... كانت أقوى مِن أيِّ شيء رأيته في حياتي... وكنت أحبُّها... أحبُّها كثيرًا، أمَّا عنها فلا أتوقَّع منها الحب... لم أجدها يومًا تعبِّر عن مشاعرها تجاه أيِّ شيء سوى عملها وأبيها وهما الاستثناءان الوحيدان والإثبات الدَّائم على وجود القاعدة، فيما عدا ذلك كانت تمتلك قلبًا ثلجيًا تمامًا كبشرتها، كنت

أجلس أمامها أستمع إليها وهي تتحدَّث عن الأطباء زملائها الَّذين لا يريدون أنْ تقتحم امرأة قسم الجراحة، هناك قانون غير مكتوب يردِّده البعض" الجراحة ليست للنِّساء"، يكفي سماعها لهذه العبارة لينطلق لسانها بحجَّتها حتَّى تنسف المتحدِّث أمامها نسفًا، سألتها مرَّةً:

" لماذا هذا القسم المتعب بالذَّات؟ دائمًا هناك الكثير مِن العمل، ودائمًا هناك الكثير مِن القسوة بين زملائك؟"

رشفتْ مِن كوب الشَّاي ثمَّ ردَّتْ على سؤالي:

" أمَّا عن القسوة فهي طبعي، وأمَّا عن التَّعب فقد اعتدته، وهناك سبب آخر، انظري حولك كم طبيبة جراحة ستقابلين في حياتك؟"

لم تنتظر منِّي إجابةً وأكملتْ:

" القليل... القليل جدًا لذلك هذا مجال أستطيع إثبات فيه تميُّزي، وقد كان فأنا الآن أستاذ مساعد للجراحة ولديَّ مشفاي الخاص هل نسيتي؟"

صمتَتْ قليلًا ثمَّ أكملتْ:

" وأيضًا أليس مِن حقِّ النِّساء أنْ يحظوا ببعض الطَّمأنينة أثناء إجراء بعض الجراحات الحسَّاسة؟ لماذا عليها أنْ تُكْشف على رجل؟ للنِّساء مكانًا في كلِّ مجال يا (فتيحة)، لأنَّ الأنثى للأنثى، ناهيك عن أنَّني لم أعشق شيئًا في حياتي مثل الجراحة"

اتَّسعت عيناي انبهارًا بها، كم تمنيتُ أنْ أمتلك بعض قوَّتها، أتذكَّر تلك المرَّة في بداية عملي هنا عندما كانت سيدتي ما زالتْ في سنوات الجامعة، دلف ذلك الوغد إلى المطبخ... وقد كان مراهقًا سمجًا لا يُحتمل، قال لي أنَّني

جميلة وشرع يتحسَّس جسدي في مواضع عدَّة، كنت مذعورةً... خائفةً... كلَّ ذرَّة في جسدي تنتفض، أنا ابنة السَّبعة عشر عامًا الَّتي لم تغادر قريتها قط سوى الآن، دخلتْ سيدتي إلى المطبخ لتجد هذا المنظر، تتالتْ صفعاتها على وجهه ثمَّ أخبرتْه ببرود:

" فتيحة إحدى الأشياء الَّتي تخصُّني، وأنت بالتَّأكيد تعلم ماذا أفعل بِمَن يقترب مِن شيء يخصُّني!"

غادرتْ سيدتي المطبخ وغادرتُ وراءها مذعورةً، ولأوَّل مرِّة شعرت أنَّ لي ظهرًا يمكنني الاتِّكاء عليه، لم تتزوَّج سيدتي أبدًا... وهو ما أثار تحفُّظ والداها الَّذي كان يحبُّها بجنون.

سمعت يومًا صوت صراخها يملأ المنزل وهو ما لم يحدث قط مِن قبل، هرعتُ ملتاعةً لأرى ماذا هناك، فوجدتُ شجارًا حادًا قد نشب بينها وبين أبيها وزوجة أبيها، لم أفهم ماذا هناك إلا فيما بعد، عندما سألتها متردِّدة عن سبب الشِّجار فأخبرتني أنَّها تريد السَّفر للخارج للدِّراسة وهم يرفضون، أخبرتها في تردِّد أكبر أنَّها يمكن أنْ تفعل ذلك مِن دون علمهم فهي تمتلك المال والقوة، عندها نظرتْ إليَّ نظرتها الباردة ثمَّ قالت:

" منذ متى وأنا أخالف قواعدي الأولى؟"

كانت تمتلك الكثير مِن المبادئ... أولها أنَّها لا تفعل أبدًا شيئًا رفضه أباها، مبادئ تفرِّق بها بين الصَّواب والخطأ ولا تكسرها أبدًا.

كانت إجازة سيِّدتي في تلك الفترة، جلستْ إلى جانب أبيها تتبادل معه أطراف الحديث، خصلات شعرها السَّوداء القاتمة اختلطتْ بسواد السَّماء فوقها فلم أعد أميِّزها، في المقعد الَّذي أمامها جلستْ زوجة أبيها ترمقها في

غلٍّ، لولا قوَّة سيدتي منذ الطُّفولة وصرامة سيدي وحبِّه الشَّديد لابنته لابتلعتْ هذه المرأة الشَّمطاء سيِّدتي، كانت سيِّدتي تبتسم، نادرًا أنْ تراها تبتسم... الشَّفتان تنفرجان ويظهر صف أسنانها اللُّؤلؤي... كنت أحفظ هذه الابتسامة القاسية لأنَّها نادرًا ما تحدث... ندرتها جعلتها إحدى المواقف الرَّاسخة في ذهني، كانت ابتسامتها استثنائية أو ربَّما هي خالية مِن الرُّوح... هل نظرتَ يومًا إلى ابتسامة تماثيل الشَّمع؟ كانت كذلك... ابتسامة جميلة ولكنَّها بلا روح، أدركتُ منذ زمن أنَّ سيدتي تحبُّ والداها... وقد كان اكتشافًا مهولًا بالنِّسبة إليَّ... هل جرَّبتَ شعور (توماس أديسون) عندما رأى نور المصباح الكهربائيِّ الَّذي اخترعه يشقُّ الظَّلام؟ كان شعوري كذلك... شعور مَن اكتشف شيئًا استثنائيًا داخل هذه المرأة، كنتُ غارقةً في خواطري أتأمَّلها عندما اتَّجهتْ إليَّ مسرعةً وأخبرتني أنَّنا سنعود الآن إلى المنزل، تساءلتُ:

" الآن! ولماذا؟ ألم تخبريني أنَّ إجازتك..."

بترتْ جملتي بصرامة:

" هناك حالات طارئة في المشفى، حادث كبير ويجب أنْ نعود"

صاح صوت والداها الواهن:

" هيَّا يا فتيحة، أسرعي"

هرعتُ إلى غرفة السَّائق أُخبره أنَّنا سنعود الآن... فقط أنا وسيِّدتي، كنت أرتجف فعلى الرّغم مِن حرارة الجوِّ كنتُ أشعر بالصَّقيع، ظلام الجوِّ هذا يطبق على أنفاسي ويخبرني أنَّ هناك أمرًا سيئًا سيحدث، بعد ساعتين مِن القيادة توقَّفت السَّيارة أمام المشفى لتخرج منها سيِّدتي وتأمر السَّائق أنْ

يعود بي إلى المنزل، لم أكن أريد العودة، ولكن مَن يستطيع مخالفة أمر ألقته سيِّدتي؟ إنَّها تأمر زوجة أبيها فتمتثل فماذا عنِّي؟

شعرتُ أنَّ الظَّلام يحاوطني فلا أستطيع رؤية كفِّي، ظلام فشلتْ أضواء المدينة حولي في تبديده، دلفتُ إلى المنزل وأنا أعلم أنَّني وحيدة، لم يعد سواي مِن الخدم وسيِّدتي بالمشفى وذلك الوغد لا يعود إلا فجرًا، دخلتُ غرفتي وارتميتُ على سريري، حاولتُ النَّوم مرارًا ولكن بلا جدوى... نظرتُ إلى السَّاعة فوجدتها الثَّانية بعد منتصف اللَّيل... ساعات مضتْ في محاولاتي الخرقاء للنَّوم، نهضتُ مِن سريري ثمَّ اتَّجهت إلى المطبخ... إذا استعصى عليَّ النَّوم فالطَّعام لا يفعل ذلك، فتحتُ الثَّلاجة ثمَّ شرعتُ أنقل ما بها إلى المائدة الَّتي تتوسَّط المطبخ، سمعتُ صوت باب المنزل يُفتح ثمَّ يُغلق فعلمتُ أنَّ الوغد عاد، نهضتُ وقد فقدتُ شهيَّتي وشرعتُ أعيد الطَّعام إلى مكانه، دلف مِن باب المطبخ ثمَّ تأمَّلني لوهلة وسأل بسخرية:

" أين الجزَّارة؟ ألم تعد معكِ؟"

أجبتُه وأنا أتحاشى النَّظر إلى وجهه:

" سيِّدتي في المشفى"

" وأبي وأمي؟"

" لم يعودا"

كنت أقول الجملة الأخيرة وأنا أمرُّ بجواره لأخرج مِن المطبخ، شعرتُ بخُطواته خلفي فأجفلتُ وتوقَّفتُ، وحش القلق القابع في صدري قد بدأ يؤدِّي عمله:

" لا تقلقي يا فتيحة تماسكي... تظاهري بالقوَّة، هو لن يقترب مِن ممتلكات سيِّدتي، وأنتِ أحد ممتلكاتها"

التفتتُ له فبدأ يتحدَّث... أدركتُ أنَّه ليس في كامل وعيه... وأدركتُ متأخرةً أنَّه كان عليَّ الفرار، أسرعتُ الخطى باتجاه غرفتي فأسرع خلفي، وأدركتُ أنَّه الأسرع والأقوى وأنَّ هناك كارثة ستحدث الآن... وأنَّني سأُعاني لبقيَّة حياتي...

عندما استيقظتُ وجدتني في غرفة سيِّدتي وإلى جانبي ممرضة عجوز غافيةً على كرسيٍّ، ضوء الصَّباح الوليد يشقُّ ستار النَّافذة محاولًا الدُّخول، استرجعتْ ذاكرتي ما حدث فانهمرتْ دموعي وصرختُ، لتفزع الممرِّضة وتهرع باتِّجاهي تحاول تهدئتي... أبصرتُ سيدتي تخرج مِن الغرفة الدَّاخلية وتأمر الممرِّضة بالخروج وتأمرني أنْ أهدأ، جلستُ على الكرسيّ، ثمَّ نظرتْ إليَّ مباشرةً وقبل أنْ تتحدَّث ارتميتُ على كفِّها أقبِّله وأبكِ وأتوسَّل إليها بكلمات لم تفهم منها شيئًا، زجرتني عدَّة مرَّات وبعد أنْ هدأتُ قالت:

" حقُّك سيعود يا فتيحة"

صحتُ وأنا ألطم خدَّاي ودموعي تنهمر:

" ولكن الشَّرف لا يعود... لا يعود..."

ثمَّ سألتُها ملتاعةً:

" هل أخبرتِ الشُّرطة؟"

هزَّت رأسها بلا، فانهلتُ على يدها أقبِّلها وأقول:

" أسألكِ بالله لا تخبري الشُّرطة يا دكتورة... سيقتلني أهلي إنْ علموا بما حدث"

" أنتِ ضحية، يجب أنْ يُقتصُّ لكِ وشرفكِ لم يضع، ذلك الوغد هو الَّذي بلا شرف"

" هذا الكلام ليس هنا... ربَّما في مؤتمرات الجامعة تقولون ذلك أمَّا أهلي... قريتي لا تفهم هذا الكلام... أين نحن منكم؟ حتَّى وإنْ لم يقتلني أهلي... هل ستترك زوجة أبيك المتسلِّطة ولدها ينال عقابه؟ هل ستتركه وهي تمتلك كلَّ تلك الأموال الَّتي يمكن أنْ تشتري بها الضَّمائر؟ ثمَّ ماذا عن أباك؟ و..."

صاحتْ بي قبل أنْ أكمل:

" فتيحة، اصمتي لأنَّ الحزن قد أعمى عقلك تمامًا، وأتوقَّع أنَّكِ ستقولين ما يثير غضبي، ارتاحي الآن ولا تقلقي لن أُخبر الشرطة أعدك"

تركتني وغادرتْ الغرفة متجهةً إلى غرفتها الدَّاخلية الَّتي كانت قد أعدتها لتصبح مشفىً مصغرًا، ارتمَيْتُ على الوسادة يتلذذ عقلي بإعادة المشهد عشرات المرَّات، كم مرَّ وأنا نائمة أبكِ؟ لم أعلم إلا والممرِّضة تدلف مِن الباب حاملةً صينية عليها طعام، خرجتْ سيدتي مِن الغرفة، ثمَّ تناولتْ مِن الممرِّضة الصِّينية وأمَرَتْها بالخروج، وضعتها أمامي ثمَّ نظرتْ إليَّ آمرةً، نهضتُ وتناولتُ رغمًا عنِّي بعض اللُّقيمات، كانت تتأمَّلني واضعةً ساقًا على ساق، وعندما انتهيت مِن الطَّعام نظرتْ إليَّ ثمَّ قالت:

" ستعودين لأسرتك... يجب أنْ تبتعدي عن هنا فترةً تستعيدين فيها قواكِ... إجازة لمدة أسبوعين... أسبوعين فقط يا فتيحة، وعند عودتك يمكننا التَّفاهم"

كانت تعلم أنَّني سأعود، لأنَّني إنْ لم افعل بإرادتي فستجبرني على ذلك، كنت أجلس أمامها بعد تلك المدة وقد ساءت قواي أكثر، ابتسمتْ سيِّدتي ولأول مرة أراها تبتسم لي... كانت قد أدخلتني المنزل خلسةً بدون أنْ يراني أحدًا، اختفتْ ابتسامتها ثمَّ قالت:

" تحبِّين المعرفة يا فتيحة، صحيح؟"

" لا أفهم"

" هل تحبِّين أنْ نتحدَّث عن عقوبة هذه الجريمة في دول مثل إندونيسيا مثلًا؟"

" أنا لا أفهم!"

" بعد قليل ستفهمين"

ربَّتَتْ على كتفي ثمَّ أخبرتني أنْ أدلف إلى الغرفة الدَّاخلية وأغلق خلفي الباب، امتثلتُ لأمرها... دقائق صمت ثمَّ سمعتُ صوت إغلاق الباب وصوت ذلك الوغد يتساءل عن ماذا هناك، أخبَرَته سيِّدتي أنْ يجلس فاستطعتُ رؤيته يفعل ذلك بعين الخيال،

ثمَّ سمعته يقول بسخرية:

" منذ متى هذه اللَّطافة؟"

" اشرب شايك أولًا وسأخبرك"

" سأشرب، ولكن اعلمي أنَّكِ تثيرين ريبتي يا جزَّارة!"

" أبي مستاء يا كاظم... مستاء كثيرًا مِن تصرُّفاتك وطفوليتك"

سمعتُ صوته يتردَّد ثمَّ يقول:

" هل... هل أخبرته بما حدث مع فتيحة؟"

" بالطَّبع لا، هل جننتْ! هل تريده أنْ يقتلك! لقد طردتها وانتهى الأمر... ولكنَّني أعلم أنَّها ليست ضحيَّتك الأولى يا كاظم متى ستتوقف؟"

" ماذا تريدين بالظَّبط؟"

" أنا لا أريد... أبي يريد، يريدك أنْ تتزوَّج"

" الأمر نفسه مرارًا وتَكرارًا... لم أتوقَّع ذلك منك أنتِ بالذَّات! لماذا لا تفعلينها أنتِ وترضين أباكِ؟"

" لقد فُقِدَ الأمل فيَّ، أمَّا أنت فصغير، لماذا لا تُرضي والداك وتتزوج مِن الفتاة المُختارة وتكفَّ عما تفعله؟"

"وأنتِ ما مصلحتك في ذلك؟ منذ متى وأنتِ تهتمِّين بي أو بما يدور في هذا المنزل؟"

" ربَّما لأنَّه مثلًا سيسمح لي أخيرًا بالسَّفر للخارج كما حلمتُ طوال عمري؟"

انقضتْ فترة ثرثرة سخيفة تحاول سيِّدتي إقناعه بالزَّواج، لم تكن تفعل ذلك بل كانت تتظاهر بمحاولة إقناعه... أنا أعلمها وأعلم أنَّ لديها حجج أقوى مِن تلك الواهنة بمراحل... هذا فخ لا بد أنَّه فخ، قطع صوت أفكاري صوتها يأمرني أنْ أخرج، خرجتُ فوجدته ممددًا على السَّرير وهي تقف إلى جانبه تلهث، نظرتُ إليه بفزع ثمَّ نطقتُ:

" ما...ماذا حدث؟"

" لا تقلقي، لم يمت بعد"

تركتني واتَّجهت إلى كرسيها تكمل كوب الشَّاي، جلستُ إلى جوارها ثمَّ نظرتُ إلى عينيها أطلب الفهم، لم تبدِّل جلستها ولم تلتفتْ إليَّ، أنهتْ كوبها ثمَّ نهضتْ واتَّجهتْ إلى مرآتها، مشَّطتْ شعرها ثمَّ ربطته كذيل حصان، وتناولتْ عباءة الجراحة الملقاة على الكرسيِّ لترتديها... وجَّهتْ كلامها إليَّ متسائلةً:

" صحيح، لم أخبرك بعد عن العقوبة في دول مثل إندونسيا؟"

سألتها بلسان مرتجف:

" ماذا؟"

" الإخصاء!"

" نعم؟!"

" كما سمعتِ"

" ول...ولكن... ه هذا خطر؟"

" خطر؟ هل نسيتي مَن أكون؟ لن يكون خطرًا عليَّ بالتَّأكيد... هيَّا ساعديني في نقله"

عاونْتُها في نقله إلى الغرفة الدَّاخلية، وأمام عينيَّ الذَّاهلتين حقنتْ في عروقه إحدى المواد وبدأتْ تؤدِّي عملها، كياني يرتجف، وروحي تهتزُّ سعادةً وخوفًا وذهولًا، تقيَّأتُ عدَّةَ مرَّات وأنا أراها تفعل ذلك، بعد أنْ انتهتْ أخرجتني

مِن الغرفة ثمَّ جلستْ أمامي بيدين ترتجفان التقطتْ منها الأوراق الَّتي مدَّتها باتجاهي، وقالت:

" غادري هذا المكان يا فتيحة، في هذه الأوراق ستجدين كلَّ ما تحتاجينه لبدء حياة جديدة، منزل في مدينة أخرى تبتعد عن هنا مئات الكيلومترات وكذلك مبلغ محترم مِن المال، ستجدين أيضًا رقم طبيب نفسيٍّ وهو زميل دراسة قديم وقد شرحتُ له حالتك... سيساعدك على التَّخطِّي... لقد عاد حقُّكِ يا فتيحة... انسي هذا المكان"

سألتُها وأنا أحاول منع المزيد مِن الدُّموع مِن أنْ تنزلق:

" وأنتِ يا سيِّدتي؟"

" أنا أعرف كيف أتدبَّر أموري... سيِّدتك لا تُقبل على خطوة في طريق إلا وهي ترى نهايته"

" ألن أراكِ مِن جديد؟"

" اقطعي علاقتك بهذا المكان يا فتيحة، وبكل ما يربطُكِ به... امسحيه تمامًا مِن ذاكرتِكِ... والآن هيَّا غادري... إلى حياتك الجديدة يا فتيحة، هيَّا"

انهلتُ على يديها أقبِّلها وأبكِ، فابتعدتْ عنِّي وصاحتْ آمرةً:

" قلتُ غادري!"

ما زلتُ أجلس أتأمَّل القطَّ الغافي عند قدمي وأتذكَّر، أتذكَّر ابتسامتها الثَّلجية الخالية مِن الرُّوح، وأبتسم...

القصَّة السَّادسة

(هل عاد الطَّاعون)

" هل عاد الطاعون؟"

فكرة همستْ بها إحدى خلايا عقلي للأخرى وأنا أتأمَّل صورةً مكبرةً بالمجهر للبكتيريا المسبِّبة للطَّاعون، كنتُ أجلس على سريري وقتها في يدي هاتفي وعليه الصُّورة، أمامي كيس بذور لب نصف ممتلئ وإلى جانبه كومة قشور، على السَّرير المجاور لي تناثرتْ كتبي بعشوائية يتربَّع فوقها كيس خبز وإلى جانبه عبوة جبن شبه فارغة، كنت دائمًا المثال الممتاز للفوضى في كلِّ شيء وهذا هو سبب استئجاري الغرفة وحيدةً بلا رفيقة تهوِّن عليَّ ضيق الدِّراسة، لا أحد سيتحمَّل فوضويتي وتقلُّبات نومي، أجلس وحيدةً أدرس لاختبار الأسبوع المقبل، أحاول تعويض ما قمتْ بإفساده في الاختبارات السَّابقة، بيدي اليمنى قلمي أخطُّ به عبارات الاستذكار على ورقة فارغة ويدي اليسرى تتناول بذور اللُّب لتقذفها في فمي، وعندها سمعتُ الصُّراخ، صراخًا هستيري لا يصدر إلا مِن حنجرة فتاة:

" هل أنهض لأرى ما هناك؟" تساءلت في كسل، وهنا سمعت الصَّرخة الثَّانية إذن يجب أنْ أنهض، متثاقلةً أجرُّ الخطى فتحتُ باب الغرفة وأطللتُ برأسي أرى ماذا هناك، الصُّراخ يأتي مِن المطبخ اتَّجهتُ إليه فاصطدمتُ بجسد يخرج منه مذعورًا، سقطتُ أرضًا وتجاوزتني الرَّاكضة- وهي نسرين تسكن في الغرفة المجاورة لي- نحو غرفتها، نهضتُ متعجِّبةً ثمَّ خطوتُ باتجاه المطبخ مِن جديد لأرى ما الَّذي يثير الرُّعب إلى هذه الدَّرجة، وهنا انطلقتْ الصَّرخة الثَّالثة الَّتي لم يكن مصدرها سوى حنجرتي أنا، لم أشعر إلا وأنا في إحدى سيَّارات الأجرة في طريقي إلى منزلي، تجاهلتُ اللَّيل المتأخر، تجاهلتُ دروسي، ليذهب الاستذكار إلى الجحيم، لتذهب جميع الاختبارات إلى جهنَّم، ما رأيته لا يُحتمل... لا يستوعبه عقل، نائمةً على سريري في منزلي يتلذَّذ عقلي بإعادة الصُّورة عشرات المرَّات، دخلتْ أمِّي إلى الغرفة للمرَّة الحادية عشرة تسألني ماذا هناك، الصَّمت التَّام يجيبها، أحاول تحريك لساني للتَّحدُّث فلا يستجيب فقط عقلي يضجُّ بالكثير مِن الحديث، تضع أمِّي يدها على جبهتي ثمَّ تقرأ الرُّقية، كيف أصف ما رأيتُ؟ هذا بالتَّأكيد أحد أحلامي، سأستيقظ بعد قليل في العرق البارد لأجده أحد كوابيس الاختبارات القاسية... ليس حقيقةً بالتَّأكيد، انزلقتْ قدمي في طين عالم الأحلام اللَّزج، أنا هنا بين الكثير مِن الفئران، أركض نحو الأفق والآلاف منها تظهر على الجانبين، تقف منتصبةً تنظر إليَّ... أصرخ، أستغيث وما مِن مجيب، في منتصف الطَّريق توقَّفتُ لألتقط أنفاسي على بعد أقدام منِّي ظهرتْ، جثَّة صديقتي الَّتي رأيتها في المطبخ وحولها الفئران، تلتهم جسدها بلا رحمة، أفلتتْ مِن حلقي صرخة واستيقظتُ غارقةً في العرق، أمِّي إلى جانبي وقد استيقظتْ فزعةً إثر صرختي تُبَسْمِل وتستعيذ بالله، عقلي يعيد الصُّورة في أحلامي على نسخ أبشع، أفرغتُ معدتي إلى جانب السَّرير، أمِّي تصرخ مستنجدةً

بأبي، تخبره أنَّها لا تطيق الانتظار إلى الصَّباح يجب أنْ يراني طبيب في الحال، مرَّت الأيام والكوابيس تزداد ولساني يعجز عن النُّطق، نقص وزني بشكل كبير وأصبحتْ أمِّي تدسُّ الطَّعام في فمي بالقوَّة، والمحاليل اتَّخذتْ موضعها الدَّائم بين عروقي، انتقلتُ بين عيادات عشرات الأطباء وجاء العشرات لزيارتي في المنزل، ما علَّتي؟ لا أعلم ولا أحد يعلم، العديد مِن الأمراض العقليَّة نسبتْ إليَّ، استمرَّتْ الكوابيس وفي كلِّ مرَّة تزداد بشاعةً، أرى مشهد جثَّة صديقتي الَّذي رأيته في المطبخ في كلِّ مرَّة، نمتُ على سريري وقد قرَّرتُ التَّفكير في مخرج منطقيٍّ مِن هذا الخراب، شعرتُ بشيء يمرُّ على خدِّي الأيمن، التفتتُ فزعةً فرأيتُ فأرًا عملاقًا هممتُ بالصُّراخ ولكن يد على فمي تكبِّل صوتي، رفعتُ عيناي مذعورةً فالتقتْ عيني بعينيها الذَّابلتين، هي هنا! هنا والدَّم يتقاطر مِن جروحها الَّتي كانتْ تنهشها الفئران في المطبخ! ابتسمتْ لي ثمَّ قالت:

" ليس كابوسًا لا تقلقي، أنا هنا مِن أجلك، وما حدث بي كان لأجلك!"

لم تحتمل أعصابي المزيد، فقدتُ الوعي ليسيطر على الرُّؤية بضع لحظات مِن السَّواد ثمَّ تشكَّلتْ الصُّورة مرَّة أخرى، اللَّعنة! لا سبيل إلى الخلاص؟

كأنَّها سمعتْ أفكاري ردَّتْ:

" لا سبيل يا صديقتي لا سبيل، جميل عالم الأحلام هنا لا قيود على لسانكِ"

فوجئتُ بنفسي أقول:

" ما هذا يا أميمة، أخبريني بالله عليك"

" هذا؟! هذا مِن أجلك! اللَّعنة الَّتي تسري في عروقك وعروقي هي مَن صنعتْ هذا، تظنين التقائنا مِن الأساس محض مصادفة؟ أنا وأنتِ وجهان لعملة واحدة، عملة العودة"

" عودة مَن؟"

" عودة الطَّاعون!"

" ماذا؟"

" كما سمعتي، سيعود السَّيد الأول ليُعيد إلى العالم الموت الأسود، سيخيِّم الظَّلام على الكرة الأرضيَّة بأكملها وسيجلس سيِّدي على العرش"

وجدتُ نفسي أصرخ بها فارتجَّ السَّواد مِن حولي:

" هل أنتِ حمقاء؟ مجنونة؟ أصاب عقلك بله؟"

" بل أنتِ ما سيصيبك لو لم تطيعي السَّيد، دماؤك تسري بها اللَّعنة، أنتِ الَّتي كان ينتظرها السَّيد ليظهر ويعود للسَّيطرة، أنتِ الأقوى لذلك اختاركِ لتبقي على قيد الحياة، وجعلني أنا هنا لأساعده مِن خلف السِّتار، أنتِ المطلوبة أنتِ أنت... ومِن اليوم ستبدأ طقوس العودة"

انطلق صوت غليظ مِن حولي لم أحدد مصدره، عشرات الصُّور تتشكَّل أمامي في الأفق الأسود، أرى المستشفيات وقد امتلأتْ حتَّى آخرها بمرضى الطَّاعون... الشَّوارع... المنازل... ما هذا بحقِّ الجحيم، متحمسةً كانتْ أميمة وهي تتابع معي الصُّور، التفتتْ إليَّ ثمَّ قالت:

" سيبدأ الظُّهور الأول حيث التقينا"

رنَّت كلماتها في أذني ثمَّ فتَحْتُ عيناي لأجدني على سريري غارقةً في العرق، هل كان حقًا ما رأيتُ؟ هل عقلي على ما يرام؟ نهضتُ مترنحةً باتجاه شرفتي... نسيم اللَّيل البارد يداعب وجهي... أشعر بطاقة غريبة داخل عقلي... لأول مرة أشعره يعمل كأكفأ ما يكون ليجد المخرج... لأول مرَّة تتكاتف خلاياه في إصرار لتفكِّر... أسمع إحدى الأفكار تقول:

" اللَّعنة الَّتي تسري في عروقي وعروق أميمة؟ أميمة ماتتْ، إذن الحلُّ لديَّ... لماذا أنا بالذَّات؟ يتعلَّق الأمر بلعنة... لعنة لعنة لعنة..."

لمعتْ في ذهني ذكرى لجدِّي قبل موته... الخرف الَّذي أصابه جعل تصديقه لدى الجميع أمرًا عسيرًا... أتذكرني جالسةً في حِجره... يُخبرني أنَّ السَّيد سيعود وأنَّني السَّبيل لذلك... يُعد لي العصير ويخبرني أنْ أشرب فأشرب... جدِّي يبتسم ثمَّ يضمُّني... يهمس في أذني أنَّ هناك موعد للقاء... جدِّي يبكي ثمَّ يتحشرج صوته يُخبرني أنَّه عبث كثيرًا واقترب مِن عوالم الخطر... يضمُّني بقوَّة حتَّى شعرتُ أنَّ أضلعي تكاد تتكسَّر... يهمس بأذني أنْ أسامحه ثمَّ يقول بضع كلمات لا أتذكَّرها عن سبيل الخلاص... أغمضتُ عيناي أحاول جاهدةً التَّذكر ولكن بلا جدوى...

"شوشوسسسسسشششش"

هذا ما تتذكَّره خلايا عقلي إنَّها سمعته مِن جدِّي

"خلاص، خلاص، خلاص"

إحدى خلايا عقلي تردِّد في حزم محاولةً تنشيط صديقاتها لتتذكَّر الكلمات، خرجتُ مِن الشُّرفة أبحث عن هاتفي، لم أمسَّه منذ أسابيع، وصلته بمصدر للكهرباء وجلستُ أمامه أنتظر أنْ تدبَّ فيه الحياة

" الطَّاعون... الموت الأسود..."

أدخلتُ عشرات الكلمات في محرِّك البحث، أنباء تثير الذُّعر عن ظهور حالات طاعون جديدة في المدينة الَّتي أدرس بها، زيادة أعداد الفئران بشكل ملحوظ في المنازل، يجب أنْ أجد الحلَّ... يجب...

عدتُ للبحث مِن جديد:

" أسطورة الموت الأسود"

كتبتُ الجملة ثمَّ قرأتُ مطالع الفقرات الَّتي ظهرت...

" الموت الأسود... رجل معتوه يدَّعي تنبؤه بعودة الطَّاعون..."

ارتجف قلبي وأنا أقرأ ذلك المقال، بعد نصف ساعة مِن البحث اهتديتُ لرقم الرَّجل، صوت الجرس الرَّتيب ثمَّ صوته اللَّزج يجيب:

" مَن؟"

" ..."

أحاول جاهدةً التَّحدُّث، بعد صمت طال تكلم الرَّجل:

" تقييد لسانك كان لهدف... لن تستطيعي الكلام مهما حاولتي... تريدين الحلَّ؟ لديَّ الحلَّ... وهو عسير ولكن تنفيذه مطلوب قبل أنْ يفوت الأوان... ستأتين وسيرشدكِ الشَّراب فلستِ بحاجة إلى عنوان معلوم"

أُغلق الخطَّ ولم أعد أسمع سوى صوت أنفاسي... عدتُ إلى سريري أتظاهر بالنَّوم حتَّى يأتي منتصف اللَّيل ويهدأ البيت لأستطيع الخروج، تك

تك تك دقَّات السَّاعة الرَّتيبة تقتلني... نهضتُ مِن مكاني عندما هدأ المنزل، ألقيتُ نظرةً على أمِّي النَّائمة بجانبي، اكتستْ ملامحها بمسحة إرهاق واضحة، بحثتُ عن منطق واضح لكلِّ ما يحدث فلم أجد... أنا ذاهبة للقاء رجل لا أعرفه في مكان لا أعرفه... بلا سلاح وبلا شيء، فقط وحيدة أَسيرُ تائهةً في اللَّيل، قدماي توجِّهني إلى مكان لا يملكُ عقلي أيَّ فكرة عنه، توقَّفتُ عندما رأيته... أمامي مباشرةً يقف في دائرة مِن الظَّلام، فارع القامة لا أتبيَّن ملامح وجهه... اقترب منِّي حتَّى غزا الضَّوء ملامحه فعرفته...

" جدي"

هكذا همستْ إحدى أفكاري، كأنَّه سمعني أجاب:

" لستُ هو، أنا الحامي، على مرِّ السَّنوات ونحن نتلاحق... أحاول منعه مِن العودة وهو يحاول الخلاص منِّي ينجح أحيانًا ويفشل مرَّات... والشَّراب الَّذي تناولته وأنتِ طفلة هو ما دلَّك عليِّ"

أخرج خنجرًا مِن جيبه ثمَّ اقترب منِّي، حاولتُ الفرار ولكن قدماي ثابتةً كأنَّ مسامير قد قامتْ بتثبيتها في الأرض، غرس الخنجر في بطني ثمَّ قال:

" لتنتهي اللَّعنة"

لم أشعر بأيِّ ألم، فقط أرى الدِّماء تنساب لتغطِّي الأرضية... نظر إليَّ الرَّجل وأعاد غرس الخنجر مرارًا، الدِّماء تزداد وقد بدأتْ تتحوَّل إلى اللَّون الأسود القاتم، شعرتُ أنَّ قدماي تلينان فسقطتُ أرضًا، اخرج مِن جيبه شرابًا ثمَّ قربه إليَّ وأمرني:

" تناوليه"

تناولته مُكرهةً، قوايَّ تتخلَّى عنِّي والرَّجل يجلس إلى جواري، لحظات صمت طالتْ بعدما تناولتُ الشَّراب، توقَّفتْ الدِّماء والتأمتْ جراحي، وشعرتُ للمرَّة الأولى أنَّ لساني قد حُرر... نهضتُ مسرعةً وقد عاد لي ذُعري، ما هذا بالله ما هذا؟ نظر إليَّ الرَّجل نظرته الثَّابتة ثمَّ نطق بصوته اللَّزج:

" الآن لقد انتهى الأمر يمكنُك العودة"

صرختُ فيه:

" أريد تفسيرًا! ما هذا؟ لن أدعَك ترحل بدون تفسير"

" الآن وقد زال تأثير الشَّراب الَّذي أسقاكِ إياه جدَّك أراكِ تعودين إلى طبيعتك الحمقاء"

صرختُ بصوت أعلى:

تكلم والا قسمًا بالله قتلتك!

نظر إليَّ نظرةً ثابتةً وبدأتْ ملامحه تتغيَّر، لم تكن ملامحه آدميةً أصبح أقرب إلى كتلة مِن الهلام لا تثبتُ على شكل لأكثر مِن ثانية، سمعتُ صوته اللَّزج يهتف في عقلي:

" أنا وشوسش الحامي... جدُّكِ كان السَّبب في وجود هذا الخطر، وكان يجب أنْ تظهر اللَّعنة ببلوغ أكبر حفيداته سن العشرين... جدُّك هو مَن صنع دائرة التَّقاطع الَّتي أنتِ وأميمة مركزها... كان يجب أنْ يسقيكِ

الشَّراب الَّذي سيدلك عليَّ وقد كان مطيعًا وفعل... دماؤك الَّتي خرجتْ حملتْ معها اللَّعنة الَّتي كانتْ تسري في داخلك... لقد انتهى الأمر قبل أنْ يبدأ..."

" وه وهل انتهى للأ للأبد؟"

" سيأتي حتمًا أحمقًا آخرًا يعبث بالحدود وينقل اللَّعنة إلى أحفاده، لا بد للطَّاعون مِن بشريٍّ يعاونه حتَّى يعود"

" وأن... وأنت مِن أين أنت؟"

" أنا مِن عالم الطَّاعون... مِن إحدى جوانب الكون الخفيَّة مِن يأتي إلينا يجلب معه الدَّمار... كما حدث مع جدِّك..."

" وأميمة ما دخلها بما فعل جدِّي؟"

" كان جدُّها شريكًا لجدِّك فيما فعل وقد أدركا الخطأ متأخرين..."

"ولك..."

وقبل أنْ أنطق شعرتُ بدوار عنيف يعتري رأسي، اختلطتْ كتلة الهلام بالأرض... هل حدث هذا حقًا أم أنَّ الدُّوار هو مَن فعل هذا؟ وجدتُ نفسي على سريري وقد اختفى الدوار.. قفزت من سريري أتفقد نفسي، رفعت سترتي فوجدت آثار التئام الجرح، لقد كان الأمر حقيقيًا تمامًا لقد بدأ الكابوس ومرَّ وانتهى... ولم تكن أضغاث أحلام.

***

القصَّة السَّابعة

(نادي الحصاد)

مرحبًا أنا سميَّة، طالبة في عامي الأخير بكلية الصَّيدلة، هذا هو عامي الأخير وأحمد الله كثيرًا على أنَّه الأخير وأرجو اكتماله على خير.

الجو جميل الآن... في العادة هو لا يكون شديد الجمال هكذا، هناك ظنٌّ بداخلي أنَّ هذه المدينة تتَّصل بأسلاك خاصة مباشرة بالشَّمس تبثُّ لها الحرارة بشكل فريد لا نراه في بقيَّة المدن، أحنُّ إلى قريتي الرَّطبة وفراشي، أنا الآن في الطَّابق الأخير وهو كما ترى يحتوي على الكثير مِن الرِّمال إلى جانب أكوام مِن الخبز الجاف وعشِّ الدَّجاج العتيق، والكثير جدًا مِن الأثاث القديم، هذا ما يظنُّه مالك العقار الجوَّ الملائم للاستذكار عندما تحدَّثَ عن جمال سطح المنزل، جلستُ على الأريكة الوحيدة الصَّالحة لذلك بعدما نظَّفتها مِن فضلات الدَّجاج، رصصتُ كتبي أمامي ونظرتُ إليها، عشر دقائق أفكِّر بماذا سأبدأ، حسمتُ أمري والتقطتُ إحدى المذكِّرات ثمَّ رفعتُ رأسي ألتقطُ نفسًا عميقًا لأبدأ.

لحظة؟ ما هذا؟ أو مَن هذه؟ منذ متى وهذا المبنى به سكان؟

مراهقة فاتنة تقف في الشُّرفة المقابلة للمبنى المقابل لي تتأمَّلني في صمت، هل سمع أحدكم يومًا عن جمال حوريات البحر؟ حسنًا كانت كذلك تمامًا

رفعتْ يديها على استحياء تشير إليَّ، كنتُ أنتظر أقل علامة حتَّى أهرب مِن الاستذكار بادلتها الإشارة ثمَّ قلتُ:

" اسمك إيه؟"

" حورية"

" إزيك أنا سمية... أنا أول مرة أعرف إنْ العمارة دي مسكونة انتو سكنتوا إمتى؟"

" أنا لسه ساكنة إمبارح، بس العمارة دي مسكونة من زمان"

" بجد؟ إزاي أنا عمري ما شوفت حد داخلها أو طالع منها؟ بعدين ساكنين من غير شبابيك ولا أبواب للبلكونة كده عادي؟"

" هنركبها قريب"

وضعتُ يدي على أذني أقاوم إزعاج الرَّجل الَّذي يهتف في مكبر صوت:

" حورية أحمد محمد مختفية عن أهلها من إمبارح كانت لابسة...إلخ"

انتظرتُ حتَّى ابتعد وقل صوته ثمَّ نطقتُ بأسى:

" حرام بجد ربنا يرجعها لأهلها"

" إنتِ في سنة كام؟"

ألقتْ الفتاة الَّتي نسيتُ أنا اسمها تمامًا السؤال فأجبتها:

" أنا في آخر سنة في صيدلة إنتِ؟"

" أنا وقفت دراسة خلاص مفيش من وراها غير الهم"

" لا يا بنتي ليه بتقولي كده؟"

" عشان شيفاكِ كده"

أشارتْ إلى كومة الكتب أمامي ثمَّ ضحكتْ، أجبتها:

" دعواتك معايا وأخلص آخر سنة على خير"

وجدتُ إحدى خلايا عقلي تخبرني أنَّني نسيت شراء خبز للعشاء، قلتُ:

" أنا هنزل دلوقتي عشان نسيت أشتري حاجة من تحت"

" على فكرة أنا كنت هنزل كمان أشتري حاجات تيجي سوا؟"

" ماشي قابليني تحت البيت بعد ١٠ دقايق"

تركتُ كتبي وترجَّلتُ الدَّرج بحماس، لكلٍّ منَّا هوايات، وهواياتي - إلى جانب إضاعة وقتي فيما لا يفيد- هو جمع الأشخاص تمامًا كما يجمع البعض العملات النَّقدية، ارتديتُ ملابسي سريعًا ثمَّ غادرتُ المنزل، وقفتُ أمام باب منزلها أنتظر ظهورها، تبًا، لِمَ لم أقم بأخذ رقم هاتفها؟، الرَّجل ينادي في مكبِّر الصَّوت مِن جديد:

" يا أهل خير حورية أحمد محمد، ١٦ سنة، مختفية عن أهلها من امبارح كانت لابسة..."

حورية أحمد محمد؟ أين سمعتُ هذا الاسم مِن قبل، سمعتُ وقع خطوات على الدَّرج استرقتُ النَّظر إلى الدَّاخل فلم أستطع الرُّؤية، كيف تترجَّل الفتاة في هذا الظَّلام الدَّامس؟ ثوانٍ ثمَّ ظهرتْ أمامي تبتسم، قلتُ لها:

" ايه الضلمة دي إنتِ كنتي شايفة إزاي وإنتِ بتنزلي؟"

" اللي زينا بيتعود على الضلمة؟"

" زيكم إزاي؟"

" أووووه أنا نسيت أجيب مفاتيح البيت... هطلع أجيبهم بسرعة معلش وإنتِ متستنيش في الشارع كده ادخلي استني في مدخل البيت"

قالتْ تلك الكلمات ثمَّ جذبتني إلى الدَّاخل بقوة عجبتُ أنَّها تصدر مِن فتاة بمثل جسدها وسمعتُ صوت خطواتها تصعد الدَّرج سريعًا، أنا حقًا لا أرى، حتَّى ضوء الشَّارع لا يجرؤ على الدُّخول! أمسكتُ هاتفي لأشعل الكشَّاف فسقط منِّي، وسمعتُ صوت إغلاق باب المنزل!

هل هذه مزحة؟ ليس الهواء بالتَّأكيد مَن فعل هذا؟ لا أستطيع إبصار خطواتي باتجاه الباب حتَّى أعيد فتحه، صوت ضحكات يأتي مِن الخلف ثمَّ ضوء قويّ كاد يعمي عيني تمامًا، الفتاة تقف في أعلى الدَّرج وإلى جانبها العديد مِن البشر... لا... ليسوا بشرًا!

لا وجود لبشر بلا أقدام وقرون صغيرة على الجباه، فقط الفتاة هي الطَّبيعية فيما بينهم، ترجلتْ الدَّرج باتجاهي ثمَّ قالت:

" إزيك أنا حورية، سكنت هنا إمبارح وإنتِ هتسكني معايا من النهاردة، أنا إديتك إشارة وإنتِ لقطتيها يبقى لازم تكملي معانا الطريق"

مدَّت يديها باتجاهي ثمَّ قالتْ بعد أنْ بدأتْ هيئتها تتغيَّر لتصبح مثلهم:

" تعالي معايا"

اسمحوا لي أنْ أضرب بقواعد علم وظائف الأعضاء عرض الحائط وأخبركم أنَّ قلبي تجاوزتْ نبضاته الألف نبضة في الدَّقيقة وأنا أرى هذا المنظر، كأنَّه كان يقاتل للوثب مِن مكانه، لحظات وبدأتْ الموجودات تتداخل وتختلط، أشعر بي أهوى تجاه القاع، الظَّلام يزيد ويزيد ويزيد، بقعة ضوء وحيدةً تأتي مِن بعيد تتراقص أمامي، صوت يهمس في أُذني أنَّها البداية، صوت أنثى على الأرجح يشبه صوت الفحيح، لم يكن يهمس بالعربية، لغة حروفها مزيج مِن حرفي الهاء والحاء، العجيب أنَّني كنت أفهم جميع ما يُقال...، فتحتُ عيني بصعوبة، بقعة الضَّوء تتَّسع وتتَّسع، هناك في مركزها تجلس أنثى إلى جانبها حورية، لا تحرِّك شفاهها فقط تجلس ساكنةً تتأمَّلني، على الرّغم مِن ذلك أسمع همسها الواضح يستمرُّ في أُذني، سأكون قربانهم البشريّ إنْ رفضتُ الانضمام

" الانضمام لماذا؟"

إحدى خلايا عقلي الغبيَّة تتساءل، تأتي الإجابة واضحةً:

" الانضمام إلينا!"

" ومَن أنتم؟"

"نحن نادي الحصاد، نادي الحصاد يسعى للتَّوسع"

"لحظة وما نادي الحصاد في الأساس؟"

"نادي الحصاد يستهدف البشر، ليكونوا خُدَّامًا لسادة العالم الآخر، نادي الحصاد يخلصكِ مِن القيود البشريَّة لترتقي روحك وتعانق النُّجوم"

" تبًا لهذا الهراء"

صاحتْ إحدى خلايا عقلي الحمقاء بهذه الجملة ناسيةً أنَّهم يستطعون السَّماع، توقَّف الفحيح فجأةً وشعرتُ بقلبي يعتصر، صرختُ بكلِّ ما أوتيتُ مِن قوَّة لكن صوتي لم يخرج، انتقل الألم إلى رأسي كذلك، ألم عاصف لم أشعر بمثله في حياتي، توقَّف الألم وارتميتُ أرضًا ألتقط أنفاسي:

"سأكون معكم، سأكون لكم"

صحتُ بها فخرج صوتي واضحًا، خرج كالفحيح وبلغة لم أكن أعلم يومًا أنِّي سأتقنها، الآن أنا أقف تمامًا كما كانتْ تقف حورية أُرسل الإشارات ومَن يلتقط الإشارة يسكن المنزل، نحن حولكم في كلِّ مكان، قد نكون سائق الحافلة أو زميل الجامعة أو ربَّما أستاذك في المدرسة!

نحن هنا ونسعى للتَّوسع، وسيستمرُّ السَّعي إلى الأبد.

القصَّة الثَّامنة

(عندما تتحقَّق الأحلام)

عندما تتحقَّق الأحلام، وتتَّصل خيوط الطُّموحات لتنسج رداءً ترتديه في الحقيقة... عندما تصبح أعظم خيالاتِكَ حقيقةً تلمسها بيديك، تعيشها، تشعر بها وتراها دائمًا... عندما تجد كلَّ ما تريد أمامكَ حتَّى تعجز عن رجاء أيِّ شيء آخر... عندها وعندها فقط ستعلم كيف هو شعوري.

طفلة صغيرة ذات عينين ساحرتين، تركض باتجاه دكَّان الحلوى، تقف أمامه، تختار ما تريد شراءه ريثما يصل والدها الَّذي يسير خلفها برزانة

"سأشتري هذا وهذا وهذا... اممم وربَّما هذا"

هكذا تُتمتم، عليها أنْ تستغل الفرصة، لن يكسر أبوها اليوم قلْبها أبدًا بكلمة (لا)؛ فاليوم عيد، عيد صامتْ قبله ثلاثين يومًا، وها هي فرحة الإفطار وحلوى العيد، عيد تعبتْ قبله ثلاثين يومًا واليوم تحصد مكافأتها.

هذه أنا سميرة عبدالعزيز تلك الفتاة ذات الضَّفائر هناك هي أنا، منذ... مممممم لا أعلم ربَّما منذ ٢٥ عامًا أو ٣٠، لا أذكر؛ تتشابكُ

خيوط الأيَّام والسَّنوات في ذاكرتي لدرجة تجعلها صعبة التَّذكُّر، شبكة مِن الخيوط داخل عقلي كلما حاولتُ فكَّها ازدادتْ تعقيدًا.

هذه أنا مرَّة أخرى، فتاة مراهقة مرحة تملأ المنزل ضجيجًا، تتذمَّر مِن واجباتها وفروضها المدرسيَّة، سميرة هي دائمًا الأولى على الصَّف، ذات ذكاء حاد، سميرة تطمح لأنْ تصبح أستاذةً جامعيةً للتَّاريخ، سميرة تعشق التَّاريخ، تعتبره حبَّها الدَّائم، سميرة تبكِ في حِجر والداها، تشكو له التَّعب الَّذي تجده في دراستها الثَّانوية، سميرة تنجح في الثَّانوية وتحقِّق النَّجاح تلو النَّجاح، سميرة تتمنَّى الوصول إلى نهاية الطَّريق.

لم تكن تعلم أنَّ المتعة تكمن في السَّير، وأنَّ السَّير هو ما يعطي الوصول متعته، مشاهد تعصف بذاكرتي بين الحين والآخر، أراها كأنَّني عِشتُها البارحة، أو ربَّما حقًا عِشتُها البارحة!

ذات يوم أخبرني أبي أنَّ عليَّ أنْ أقاتل لأحصل على ما أريد، أقسم لي أنَّ النَّجاح له طعم آخر، حَلَفَ أَغْلظ الأَيْمَان أنَّ حلاوة النَّجاح تُنْسِي مرارة الكفاح، لم يُخبرني أنَّ التَّعب هو ما يجعل النَّجاح ذا قيمة، لم يُخبرني ذلك بشكل مباشر، ليته فعل!

اليوم هو الجمعة، يوم راحتي الأسبوعيَّة، أجلس على سريري أجدِّل شعري كما اعتدتُ دائمًا، ابنة خالتي نغم تجلس على السَّرير المقابل لي، هي صديقة طفولتي ومراهقتي وشبابي وأظنُّ أنَّه لا وسيلة للتَّخلُّص منها سوى الموت، تجلس أمامي تثرثر وهي تلوكُ العلكة كالمعتاد، أتابعها بنصف انتباه وأنا أحاول أنْ أجعل الجديلتين في المكان نفسه على كلِّ جانب، تشير يدها إليَّ بشيء قائلةً:

" انظري يا سميرة هذا أحمر شفاه جديد، أهدته لي إحدى صديقاتي بالأمس"

قلتُ مصحِّحةً وأنا أتناوله مِن يدها وأنهض لأقف أمام المرآة:

" أهدته لنا"

" كالعادة تستولين على أغراضي..."

صمتَتْ برهةً ثمَّ ربَّعتْ قدميها وأكملتْ:

" نريد أنْ نفعل شيئًا جديدًا اليوم، لن نقضيه ككلِّ جمعة نأكل ونثرثر"

قلتُ وأنا أمسح أحمر الشِّفاه الزَّائد بطرف كمِّي:

" مثل ماذا؟"

" ما رأيك أنْ نقضي اليوم في الخارج؟"

" اليوم يوم عطلتي كما تعلمين، أريد أنْ أقضيه بالمنزل، طوال أيام الأسبوع وأنا بالخارج بسبب الجامعة... المهم ما رأيك؟"

قلتُ ذلك وأنا أستدير لأقف بمواجهتها، فصاحتْ:

" رائع! هذه الدَّرجة رائعة جدًا على لون بشرتِكِ"

" إذن حلال عليَّ"

قلتُ الجملة ثمَّ قذفتُ بأحمر الشِّفاه ليستقرَّ داخل أحد الأدراج المفتوحة في خزانتي متجاهلةً صيحات نغم المعترضة، تَركْتُها تمامًا حتَّى تصمتُ ثمَّ قلتُ:

" هاه ما الشَّيء الجديد الَّذي تريدين فعله؟"

" لنتمنَّى أمنيات!"

" ماذا؟! وهل هذا شيء جديد؟"

" أخبَرَتْني جدَّتي لأبي أنَّه في السَّنة..."

" تلك العجوز القبيحة الكئيبة الثَّرثارة الَّتي لا تطيق رؤيتي!"

" سميرة! قلتُ لكِ سابقًا أنَّها جدَّتي ولا أقبل إهانتها"

" حسنًا، حسنًا... أعتذر، أكملي"

" لن أكمل"

"لا تكملي"

" أخبَرَتْني أنَّه في السَّنة الفرديَّة، والشَّهر الفرديِّ، واليوم الفرديِّ دقيقةً واحدةً في ساعة فرديَّة تتحقَّق فيها الأمنيات، أمنية واحدة فقط للشَّخص تتحقَّق في هذه الدَّقيقة، فحتَّى وإنْ صادف تمنِّيه لأمنية أخرى فلن تتحقَّق طالما حُققتْ واحدة مِن قبل... ما اليوم؟"

نظرتْ إلى التَّقويم المعلَّق على الحائط ورائها ثم ردت على نفسها:

" السَّابع مِن مارس، رائع! والسَّنة فردية أيضًا، لنفعلها"

" هل تصدِّقين هذا الهراء؟"

" لنعتبرها لعبةً يا سميرة!"

" حسنًا، قلتِ أنَّها ساعة فرديَّة، متى بالضَّبط؟ يمتلئ اليوم بساعات فرديَّة لو لاحظتِ هذا"

" لنفعلها الآن، السَّاعة الآن الثَّالثة تمامًا، هيَّا تمنِّي أمنيةً يا سميرة!"

" هكذا بلا طقوس؟!"

" نعم، هياا أمنيتك"

" ابدئي أنتِ"

" سميررررة أمنيييتتتك"

يصعب التَّخلُّص مِن نغم عندما تُصرُّ على شيء، صحتُ بشيء مِن العصبيَّة نتيجة لصوتها المرتفع.

" أتمنَّى أنْ تصبح حياتي كما أريد تمامًا"

" كما تريدين! كيف؟"

" مثاليَّة تمامًا، كما أتخيَّل وأسعى للوصول، مثاليَّة لدرجة يستحيل بعدها تمنِّي أيِّ شيء"

" رائع إنَّه دور..."

صدرتْ صيحة مُباغتة مِن الخارج ثمَّ اقتحم طفل الغرفة وقفز على السَّرير يختبئ ورائي وهو يصرخ:

" عمَّتي، عمَّتي، احميني يا عمَّتي"

دلفتْ إلى الغرفة وراءه امرأة سمينة ممسكةً بعصا وهي تصيح:

" والله، لن تفلتَ مِن يدي"

أمام عينيَّ المندهشتين وذاكرتي الَّتي تزدحم بآلاف الذِّكريات الجديدة الَّتي أحاول استيعابها قامتْ نغم - الَّتي ازداد وزنها فجأةً عدة كيلوجرامات وبرز بطنها بشكل ملحوظ- تمنع المرأة الغاضبة:

" اهدئي يا نورة، اهدئي"

" لن أهدأ قبل أنْ أسلخه حيًا"

" ناوليني هذه الآن واهدئي، أنا في شهوري الأخيرة ولا أتحمَّل كثرة الحديث"

تناولتْ نغم مِن نورة العصا، ارتمى الطِّفل بين ذراعيَّ وحاوط رقبتي بذراعيه الصَّغيرتين، الذِّكريات تتسابق في ذاكرتي بشكل يصعب عليَّ ملاحقته، ألقيتُ نظرةً على تقويمي المعلَّق على الحائط، ما هذا الهراء بالله؟ نهضتُ مِن مكاني أحاوط الصَّغير الَّذي يدفن وجهه في كتفي بذراعيَّ حتَّى لا يسقط، اتجهتُ ناحية المرآة، هذا وجهي! هذا وجهي الَّذي كان منذ دقائق يمتلئ بالبثور أم منذ خمس عشرة سنةً! وضعتُ الطِّفل على المقعد المجاور لي وخرجتُ إلى الشُّرفة، أمشِّطها جيئةً

وذهابًا، أستجمع ذكرياتي الجديدة، أمرِّرها على عقلي المذهول، أتأمَّل المكان حولي بعد مرور خمس عشرة سنةً... طلاء الشُّرفة الَّذي أصبح ورديًا يمتلئ بالزُّهور، أسفل المنزل تحوَّل دكَّان الحلوى العتيق إلى عطارة فاخرة، زواج أخي وسفره للخارج، وفاة خالتي أمِّ نغم... الكثير مِن الأحداث الَّتي تتسابق للوصول إلى وعيي.

أنا الآن أستاذة علم التَّاريخ بكليَّة الآداب، عدتُ من جديد إلى المرآة أتأمَّل نفسي؛ جسدي ممشوق وطولي أكاد أقسم أنَّه ازداد عدَّة سنتيمترات، أبدو... أبدو كما أريد تمامًا!

هل حقًا تحقَّق الأمر وقفزتُ مباشرةً إلى كلِّ ما أريد؟! الآن أنا سميرة عبد العزيز، أستاذة علم التَّاريخ بكليَّة الآداب بإحدى أعرق الجامعات، قالتْ نغم ساخرةً:

" سميرة، هل ستقفين أمام المرآة هكذا إلى الأبد؟"

التفتتُ إليها أتأمَّلها وأستعيد آخر ذكرى لنا معًا، آخر ذكرى عشتها معها حقًا؛ لم تتمنَّ نغم أمنيتها، لم تفعل ذلك أبدًا، لقد قطعتْ أمِّي حديثنا وأخبرتنا أنَّ الغداء جاهز.

قالتْ نورة امرأة أخي- والَّتي تهمس لي ذكرى الآن بأنَّها لا تطيقني وتغار منِّي-:

" أصحاب العقول في راحة"

أجبرتُهما على الخروج، ثمَّ ارتديتُ ملابسي وخرجْتُ، خرجتُ بمشاعر تختلط بين السَّعادة والدَّهشة، خرجتُ لأرى حياتي الجديدة الَّتي تحتشد ذكرياتها داخل رأسي.

ظلَّتْ غيمة السَّعادة تظلَّني لمدة معقولة، لقد وصلتُ أخيرًا، أنا هنا في المكان الَّذي أحبه... انقشعتْ الغيمة فجأةً لتلفحني شمس حارقة... في الخامسة والثلاثين أنا الآن، ومازلتُ أسمع المغازلات مِن شباب بعمر أبنائي، أستاذة جامعية مرموقة، اسمي وحده كفيل بإثارة هيبة حضوري في المكان الَّذي يُذكر فيه... سميرة عبدالعزيز الَّتي تمتلك عدَّة مؤلفات في التَّاريخ والأدب، امرأة يَنظر لها الجميع بعيون الإعجاب والانبهار، الفتاة الَّتي جمعت بين كلِّ ما تريد... لكن هل تنظر هي إلى نفسها كذلك؟

سميرة عبدالعزيز الَّتي وصلتْ لكلِّ ما تريد في غمضة عين، ولكن هل هي سعيدة بذلك؟ أرى نظرات الفخر تزيِّن عيون والداي عندما ينظران إليَّ، ليتني أستطيع النَّظر إلى نفسي هكذا! تحتشد في ذاكرتي ذكريات عن الامتحانات وخوفي وبكائي ذعرًا منها... مشاهد عن دراستي بالسَّاعات وحيدةً في جوف اللَّيل... آلاف المشاهد الَّتي لم أعشها ولم أشعر بها، كأنَّني أشاهدها مِن الأعلى، فقط مِن الأعلى...

أحيانًا أسأل نفسي؛ وصلتُ إلى كلِّ ما أريد فماذا أريد؟ وهنا حقًا يأتي السُّؤال... فماذا أريد؟ لا شيء... نفسي خاوية تمامًا ولا يوجد شيء يتطلَّب السَّعي إليه، وصلتُ إلى كلِّ ما أريد، ولكن أين لذَّة شعور الوصول؟ أين الفخر الدَّائم الَّذي كان يُصاحب شخصيتي؟ لو حُكيتْ لي قصتي في السَّابق لاعتبرتني ساذجةً...

مَن يتعس وحوله كلِّ ما يريد؟ مَن يحزن وقد وصل إلى كلِّ ما يتمنَّاه بدون تعب؟ مَن يصيبه الهمَّ وهو يعجز عن رجاء أيِّ شيء آخر لأنَّه ببساطة يمتلك كلَّ شيء؟ تمرُّ على ذاكرتي صور الذِّكريات الَّتي عشتها... فرحتي بنتيجة الثَّانوية العامَّة، بكاء أبي وهو يحتضنني، وزغاريد أمِّي الَّتي تملأ المكان... لم تكن حياتي في ذلك الوقت مثاليةً ولكنِّي كنتُ أجد السَّعادة.

ربَّما أسمع تساؤلًا تهتف به إحدى خلايا عقلي؛ ما الَّذي يدفعكِ لإكمال هذه الحياة الرَّتيبة؟

تجيبها إحدى خلايا قلبي المؤمنة أنَّ الهدف الأسمى لم يُحقق بعد، وأنَّه الوحيد الَّذي سأصل إليه بمجهودي، ولن تُفلح دقائق الأمنيات معه... هذا الهدف هو ما يجعلني حيةً الآن أَسْطُرهذه الكلمات.

***

القصة التاسعة

(نُطق الخيال)

مازلتُ أتذكَّر ظهورهم الأول، عندما نظر إليَّ بعينيه اللَّامعتين وقال:

" نحن الخيال"

أجبته مُتشكِّكةً:

" وهل ينطق الخيال؟"

وضع ساقه فوق الأخرى ثمَّ أجاب:

" نحن نُطق الخيال"

منذ ذلك الحين وأنا أعتاد ظهورهم، قيل لي مرارًا أنَّ ميزتي الوحيدة هي خيالي الخصب، وأكَّد لي الجميع أنَّه سيودي بي يومًا إلى الجحيم إذا لم أضع له حدودًا، ولكنِّي لم أقتنع، لماذا أضع له حدودًا مِن الأساس؟ فأنا أحبُّ الخيال، أحبُّ الجلوس منفردةً لأتحدَّث مع شخصيات مِن أزمان أخرى، إنَّ عقلي يعمل وقلمي يكتب فإلى ماذا أحتاج بعد ذلك؟ لم أخبر أحدًا عن حقيقة ما أعيش، الجميع يعتبرني انطوائيَّة تهوى العزلة...

ولكنَّني لستُ كذلك... هم فقط لا يفهمون وإذا تحدَّثتُ أمامهم فسأكون مجنونةً بلا ريب، الخيال وشخصياته هو ما يجعلني أحيا...

اليوم أنتظر ظهوره... شخصيتي الجديدة الَّتي كتبتُ عنها... جعلته أستاذًا في علم الفقه... كنتُ أواجه بعض المشكلات في هذه المادَّة فكتبته ليساعدني، قرَّرتُ أخيرًا أنْ أهتمَّ بدراستي، كان ذلك تحت تشجيع شخصيَّاتي الَّتي أقسمتْ أنَّها تثق بقدراتي، أمضيتُ عمري كلَّه أُقارَنُ بمَن حولي... حتَّى اقتنعتُ تمامًا أنَّني حقًا كما يقولون لا ميزة لي سوى الخيال؛ لذلك سأجعل الخيال يخدمني...

ظهر أمامي أخيرًا، شيخ وقور في الخمسين مِن عمره، كما وصفته تمامًا في أول مشهد، يرتدي منامته المخطَّطة وشعره الَّذي غلبه البياض يعطيه المظهر الوقور، نظرتُ إليه ثوانٍ ثمَّ قلتُ:

" كيف حالُكَ يا دكتور؟"

" بخير وإنْ كان لا يُعجبني ما ترتدين! تعلمين أنَّني سأظهر الآن فلماذا لم ترتدِ حجابَكِ؟"

" أنتَ مِن بنات أفكاري يا دكتور... مجرد شخصيَّة على ورق؛ لذلك لكَ معاملة خاصَّة لن أعاملَكَ كرجل غريب بالتَّأكيد، اعتبر نفسك ابنًا لي!"

" أنتِ هكذا تهينيني!"

اللَّعنة لماذا وصفته حاد المزاج كهذا؟ كنتُ حمقاء... مزَّقتُ الورق الَّذي كتبتُ عليه قصَّته فاختفى مِن أمامي، سأكتب أخرى، سأجعله رائق المزاج بارد الطِّباع، فالحدَّة لا تناسبني، جلستُ على مكتبي أُمسكُ

بالقلم وأستعدُّ للكتابة، وجدتُ ظلًا يمنع الضَّوء مِن الوصول إلى الورقة رفعتُ رأسي فرأيتُه، شخصيَّتي الأولى الَّتي تمتلكُ مكانةً خاصَّةً في قلبي، جلس إلى جانبي ثمَّ نطق بصوته الرَّزين:

" عن ماذا تكتبين؟"

" عن الحياة ومَن فيها..."

وجَّه إليَّ نظرةً متسائلةً اتَّبعها بقوله:

" ألا تخشين ظهورنا؟"

" هل تعلم أحيانًا كثيرةً ينتابُنِي التَّساؤل هل تظهرون حقًا؟ أم أنَّكم فقط بداخل عقلي؟"

قال بتلقائيَّته المعهودة:

" وما الَّذي يهم؟ ألستِ سعيدةً بوجودنا؟"

" أنا سعيدة ولكن..."

" بدون ولكن، تُهلكون أنفُسكم بالبحث عن تفسيرات لكلِّ ما يحدث... تصالحي مع الحقيقة مِن حولكِ فقط بدون تفسيرات"

" هذا إنْ كانت حقيقة!"

" حقيقة أو وهم لا يهم، المهم أنَّكِ سعيدة وأنَّنا نقدِّم العون، نحن هنا مِن أجلِكِ، شخصيَّاتكِ المخلصة للأبد..."

لم يُعطه لساني ردًا ولكن عيناي فعلتْ، شخصيَّاتي المخلصة للأبد هي حصني، بعد كلِّ ما عانيته مِن خذلان ووحدة طوال حياتي الآن جاءتْ شخصيَّاتي لتُعوضني، سألني بعينيه اللَّامعتين:

" أخبِريني ما أحوالكِ في الدِّراسة؟"

" سيِّئة إلى أبعد حد؛ كنتُ على وشك تأليف قصة لأستاذ جامعيٍّ حتَّى يساعدني بعض الشَّيء"

" الفكر..."

دقَّ الباب فاختفى مِن جانبي، ثمَّ فُتح الباب ليظهر وجه أبي العابس، علمتُ مِن تعابير وجهه أنَّه على وشك بدء مشاجرةً معي، لا بد لأبي مِن مشاجرتين في الأسبوع معي حول انطوائي وبُعدي عن العالم، أو ربَّما حول تدهور حالتي الدِّراسيَّة... أو حول ابن عمِّي الَّذي يريد خِطبتي وأنا أرفضه رفضًا تامًا، تطلَّعتُ إليه ثمَّ ابتسمتُ أنتظر منه بدء المشاجرة، أخبرني بوجه عابس أنْ أرتدي ملابسي لأنَّ لديَّ موعد عند الطبيب، سألته بحاجبين مرفوعين:

" لماذا؟ أنا لستُ مريضةً!"

" بل أنتِ كذلك، هيَّا، أسرعي"

" أبي أَخبرني ماذا هناك؟ أنا بكامل صحَّتي!"

" بالله؟! وماذا عن عقلك؟!"

أجبتُه مستنكرةً:

" عقلي! ماذا به؟"

" كفِّي عن هذا الهراء، منذ مدَّة ونحن نسمعُكِ تحادثين أشخاصًا لا وجود لهم، أصبحتِ تشبهين المومياوات؛ لا تخرجين مِن غرفتكِ إلا فيما ندر!"

" أأب... أأبيبي الأمر ليس..."

" قلتُ ارتدي ملابسكِ سريعًا"

طاااخ، كان ذلك صوت الباب الَّذي أَغلقه أبي بعدما صرخ بتلك الكلمات، جلستُ على سريري تائهةً أفكِّر فيما حدث، كانتْ أسرتي تسمعني... كانوا يتنصَّتون على كلماتي مع شخصيَّاتي، حتَّى وإنْ كنتُ مريضةً، مَن قال أنَّني أريد العلاج؟ العلاج في يد شخصيَّاتي ليس في يد البشر، ارتديتُ ملابسي على عجل خوفًا مِن أبي ثمَّ خرجتُ أقاوم الدُّموع، وصلنا إلى العيادة وجلستُ أمام الطَّبيب، بضعة أسئلة يلقيها ليتلقَّى عليها إجابات مختصرة منِّي، لم أكن أريد التَّعاون حتَّى ألقى عليَّ سؤاله الأخير:

" لماذا تظنِّين أنَّهم يظهرون لكِ؟"

" لأنَّهم يحبونني!"

" ألا يوجد مَن يحبكِ غيرهم؟"

ظللتُ صامتةً لثوانٍ أحاول اقتناص الكلمات، مسحتُ إحدى الدَّمعات الَّتي انذرفتْ مِن إحدى عيني قبل أنْ تصل إلى خدِّي ثمَّ تَكلَّمتُ:

" منذ كنتُ صغيرةً وأنا وحيدة... ليس لي أصدقاء ولا يرحِّب بي أحد لأكون صديقةً له، عائلتي تنتقصني وتعتبرني الأغبى بين أفراد أسرتي... دائمًا هناك الكثير مِن الشِّجار معي أنا فقط، لم يقدِّموا لي يد العون أبدًا في أيِّ شيء احتجتُ إليه... شخصيَّاتي لا تفعل ذلك... شخصيَّاتي تحبُّني، تخدمني، تقدِّم لي دائمًا يد العون، أخبرني أنت حتَّى وإنْ كانوا زيفًا لماذا أستغني عن شعور السَّعادة الَّذي يقدِّمونه لي؟ حتَّى وإنْ كانتْ سعادةً مزيفةً، أنا لا أمانع فأنا بحياتي لم أذق المعنى الحقيقي للسَّعادة"

غادرتُ عيادة ذلك الطَّبيب ثمَّ عدتُ لمنزلي، صرف لي العديد مِن الأدوية، ارتميتُ على سريري، ودَفنتُ وجهي في وسادتي أبكِ بعدما أَجبرني أبي على تناول الدَّواء أمامه... ظهر لي ثمَّ ربَّتَ على كتفي ونطق:

" لا تبكي، الأمر لا يستحقُّ"

" سيحرمونني رؤيتُكم! كيف لا يستحقُّ؟!"

" اهدئي... اهدئي أنا لديَّ الحلُّ"

رفعتُ رأسي مِن على وسادتي ثمَّ قلتُ بصوت خافت:

" وما الحل؟"

أَمسكَ قلمي ثمَّ أعطاني إياه ونطق بحماسة:

" في البداية ستكتبين"

" ماذا سأكتب؟"

" ستكتبين نفسكِ!"

ظهرتْ على وجهي أقصى ملامح البلاهة فأردف:

" اكتبي نفسكِ بصفاتكِ وملامحكِ وكلِّ شيء، ضعي نفسَكِ بيننا في قصَّة محبوكة وبعدها سأهديكِ نهاية الحلِّ"

أمدَّتني كلماته بالقوَّة، أمسكتُ القلم وشرعتُ أكتب وهو إلى جانبي، بعد ساعتين كنتُ قد انتهيتُ مِن "تأليفي"، نظرتُ إليه أنتظر منه الكلام فقال:

" أوصدي باب الغرفة بالمفتاح"

قمتُ ثمَّ أوصدتُ باب الغرفة والتفتْتُ إليه أنتظر منه الأمر التَّالي، نظر إليَّ طويلًا ثمَّ همس:

" الأمر سيحتاج إلى شجاعة، عديني أنَّك ستنفِّذين"

" هل سيجعلكم تبقون معي؟"

" سيجعلُكِ تأتين إلينا في عالمنا... سنصبح حولَكِ ومعكِ"

أخذتُ نفسًا عميقًا ثمَّ همستُ:

" أعدُكَ بالتَّنفيذ"

أمسكَ بيدي ثمَّ وجَّهني باتجاه الشَّرفة ووقف أمامها، فهمتُ أنَّه يريد منِّي فتحها ففتحتُها، دلف فدلفتُ وراءه... نظر مِن الشُّرفة إلى الأسفل ثمَّ التفتَ إليَّ وضمَّني، ظلَّ كذلك لثوانٍ بعدها ابتعد عنِّي وقال:

" ستقفزين الآن"

" ماذا؟ هكذا... هكذا سأموت!"

" موت في هذا العالم... وحياة في عالمنا! هيَّا، ألا تريدين أنْ تبقي بيننا؟"

طرقات عنيفة على باب غرفتي ثمَّ صوت أبي يناديني للغداء، الْتفتَ إلى الباب ثمَّ أعاد النَّظر إليَّ و تلفَّظ:

" هيَّا لا وقت لديكِ... إنَّها فرصتُكِ الوحيدة قبل أنْ نختفي إلى الأبد تحت تأثير علاجكِ، هيَّا دقائق وسيكسر أبوك الباب... تعرفين أنَّه عنيف"

انزلقتْ إحدى الدَّمعات مِن عيني فمسحها بيده، أمسكتُ بيده ليساعدني على الصُّعود على سور الشَّرفة، وقفتُ على السُّور ثمَّ نظرتُ إلى الأسفل... كنتُ دائمًا أتساءل كيف سيكون شعوري قبل الموت بلحظات؟ كيف يشعر الإنسان وهو يقف على الحدِّ الفاصل بين الموت والحياة؟ هل حقًا سأذهب لأحيا بين شخصيَّات قصَّتي؟ أم سأذهب إلى الجحيم كعقاب دائم لي على ضعفي وقتل نفسي؟ دقَّات أبي على الباب تزيد وصياحه يعلو، هل سيحزن أبي على انتحاري؟ أم ستصيبه فرحة الخلاص مِن همٍّ ثقيل كما كان يُطلق عليَّ دائمًا؟

صوت شخصيَّتي مِن خلفي يحثُّني على القفز، يصف لي الحياة الجميلة الَّتي سنعيشها معًا... سيكونون حولي ومعي دائمًا... يذكِّرني بالوعد الَّذي قطعته له منذ ثوانٍ صوت جسد أبي يدقُّ على الباب، طااخ طااخ طااخ، ثمَّ صوت صراخه الَّذي يشوبه القلق يتساءل يا تُرى ماذا حدث

لي؟، إحدى أفكاري تحذِّرني مِن أنْ أفعل... تذكِّرني بآيات القرآن الَّتي حفظتُها وأنا صغيرة، صوت شيخ الكُتَّاب في عقلي يردِّد بلا ملل:

" ولا تقتلوا أنفسكم إنَّ الله كان بكم رحيما" صوت شخصيتي مِن الخلف اختلط بصوت أفكاري فلم أعد أعلم مَن المحق؟ التفتْتُ ثمَّ قفزتُ على أرضيَّة شرفتي، دفعتُ شخصيَّتي ثمَّ أسقطتها أرضًا فاختفتْ، ركضتُ باتجاه الباب ثمَّ فتحتُه وارتميتُ بين أحضان والدي الغاضب أبكِ بحرقة... لأول مرَّة أشعر بذراعيه يحاوطاني، همستُ مِن بين دموعي:

" لماذا حرمتني دائمًا مِن هذا الشعور يا أبي؟!"

***

الفهرس

الموضوع	الصفحة
في ظلِّ ذاكرة	11
السَّاكن	25
مدخل منفلوط	34
نسخة خامسة	45
حين تقتصُ امرأة	51
هل عاد الطَّاعون	62
نادي الحصاد	71
عندما تتحقَّق الأحلام	77
نُطق الخيال	86

***

تمت

بحمد الله